

التاتار والخلافة الإسلامية

أخطر الأسئلة: لماذا استخدم التتر المسلمون الياسا في بلاد الإسلام؟؟

-المواجهة بين طلبة الخليفة ومنجنيق هولاكو الخليفة يستورد طبالين من الموصل ، ويبيع لهولاكو منجنيق وأدوات لحصار بغداد.

-الوحش والجميلات: هولاكو عاشقا !! الخليفة يستورد طبالين من الموصل ، ويبيع لهولاكو منجنيق وأدوات لحصار بغداد.

-الراقصة عُرقة شهيدة بين يدي الخليفة "الخليفة المستعصم بالذهب" مات جوعا فوق جبل من ذهب.

بقلم:
مصطفى حامد

التتار والخلافة الإسلامية

قبل احتلال التتار لبغداد كانوا قد أمضوا عدة عقود في تعامل مع المسلمين في التجارة والحرب والثقافة حتي صار لديهم فكرة جيدة عنهم، وصارت المنطقة متجانسة فيما يشبه النسيج الواحد بين التتار ومن حولهم. وقد أعتنق بعض التتار الإسلام إما على الطريقة السنية أو الشيعية حسب الظروف .

وكانت الدولة الخوارزمية مجاورة لبلادهم تمثل قمة الحضارة الإسلامية في المنطقة. وكانت متجانسة عرقياً أي كلهم من الجنس التركي حتي الأتراك العثمانيين هم أيضاً أحد أفرع القبائل المغول وكذلك إخوانهم السلاجقة.

كونت قبائل التتار والمغول إمبراطورية واحدة تحت قيادة جنكيزخان مؤسس إمبراطوريتهم التي تحولت إلي أكبر إمبراطورية في التاريخ من حيث المساحة والقوة العسكرية.

يقول الدكتور **حسين مؤنس**: (الصين كانت قسمين :الصين الجنوبية وهي المعروفة باسم الصين ، وهي التي كثر تردد المسلمين إلي سواحلها. والصين الشمالية التي تعرف باسم بلاد الخطأ أو الخطاي والعرب أول من أطلق هذا الأسم علي شمال الصين وعاصمته خان بالق أو بكين ، وعندهم أخذ الأوروبيون الأسم فظلوا يسمون بلاد الصين كلها).

إهتم جنكيزخان بتكوين أمة حقيقية ذات حضارة ونظام. فحاول استيعاب نظام الدولة في الصين التي فتح الجزء الجنوبي منها وهو الجزء الذي كان يتعامل مع المسلمين منذ فترة طويلة وله علاقات تجارية مع أوروبا والهند عبر ما يسمى طريق الحرير وطريق القوافل التي تسير إلى الشام ومن هناك تستأنف سيرها بحراً إلى الموانئ الأوروبية خاصة في إيطاليا.

اهتم جنكيز خان بعملية نظم الدول وثقافتها وأديانها ، وأهتم بجيرانه الخوارزميين وأخذ الأمراء وكبار الدولة يتعمقون في فهم الإسلام حتي اعتنقه بعضهم.

وأعجبوا كثيراً بالحضارة الخوارزمية والعاصمة الكبيرة سمرقند حتي عقد هولاءكو اتفاقية سلام وصداقة مع سلاطين الخوارزم تضمن عدم نشوب معارك ومرور التجارة والأفراد بلا عوائق.

ولكن أحد أمراء خوارزم نقض الاتفاق وهاجم قافلة للتجار المغول ونهبها وقتل من فيها. تسبب الحادث في إنقلاب الصداقة إلي عداة شديد فقد جرح كرامة سلطان المغول وقرر الانتقام وحارب الخوارزميين بلا رحمة ودمر بلادهم وفي رسالته إلي ملكهم قال جنكيز أنه لم يتصور أن يقوم المسلمون بالغدر وهم أصحاب ديانة سماوية. وكان ذلك بداية سلسلة الحوادث التاريخية التي أثرت في علاقة المغول بالمسلمين وفهمهم للإسلام.

فقد لمسوا مستويين من الإسلام ، مستوى يعرضه العلماء من السنة والشيعية وعدد من العارفين الذين حظوا باحترام الناس وثقتهم، وهناك مستوى آخر من التدين المعمول به بين الحكام وكبار رجال الدولة والأمراء وهو إسلام اعتنقه عدد من كبار المغول.

هناك المستوي الثالث من الإسلام يعمل به أفراد الشعب العاديين الذين هم مجرد مقلدين للطبقة الحاكمة مع الكثير من الجهل وتفشي الكثير من الأمراض الاجتماعية في المجتمع المسلم نتيجة سوء الإدارة وغياب القانون الذي كان من المفترض أن يكون مستوحى من الدين الإسلامي .

كانت تلك مسألة كبيرة جدا خاصة عند جنكيز خان الذي تعلم من الحضارة الصينية أن الدولة لا تقوم الا علي قانون موحد وثابت قائم اعتقادات معروفة ومحترمة يوفرها اعتقاد مشترك لدين واحد أو عدة أديان يحترم بعضها بعضها وتعيش في تسامح بعيدا عن التطاحن الذي يفكك الدولة ويضعف المجتمع.

لهذا تبنى جنكيز خان والأباطرة من بعده سياسة التسامح الديني وعدم التدخل في حرية الشخص في إختيار معتقده بدون تدخل الدولة لإرغامه علي معتقد محدد تفضله الدولة علي باقي المعتقدات.

لأجل هذا تعددت الديانات بين المغول فمنهم من أعتنق المسيحية أو اليهودية وأكثرهم كان علي الوثنية حتي أن جنكيز خان الذي كان وثنياً اعتنقت زوجته النصرانية.

هولاكو عاشقا

وكدليل على التسامح الديني نري أن هولاكو الذي دمر الخلافة العباسية وقتل الآلاف من سكان بغداد، قد تزوج من امرأة مسلمة كان أبوها ملكا علي بلاد الكرج (جورجيا) وكانت مسلمة وأبوها مسيحياً ولكنها أصرت علي أن يعتنق هولاكو الإسلام فسأل من حوله كيف يكون مسلماً ؟ حتى يتمكن من الزواج من أميرة (جورجيا) التي أغرم بها للغاية. فقالوا له يكفي أن "تنطق" بالشهادتين.

وقد حاول عند دخوله بغداد أن يتخذ من زوجة الخليفة المستعصم محظيه له بدون زواج شرعي فخدعته حتي يقتلها فقتلها. فانقذت تلك السيدة شرف المستعصم. حسب قول " الذهبي: وهو مؤرخ سني متعصب للخلافة.

الياسة: الكتاب المقدس لجنكيز خان

رأي جنكيز خان أن المسلمين لا يحكمهم قانون محدد فكل سلطان أو خليفة يأتي إلي الحكم يضع قوانينه الخاصة بناءً علي مصالحه قصيرة الأمد التي تتلخص في الالتصاق بالحكم والتمتع بالثروة وتوسيع نطاق دولته إن أمكن و القضاء علي أي معارضة في الداخل. ولأن كل سلطان له تفكير مختلف وأطماع مختلفة فإن القوانين دائما تتغير من عهد إلي عهد آخر ، كما أن الدستور الذي تؤخذ منه الأحكام هو الحاكم شخصيا ورؤيته الخاصة لهذا كان الظلم هو واقع الدولة الإسلامية وقانونها الثابت. والحكم ليس قائم علي التراضي ولا علي مبدأ ديني واحد لهذا انقسمت الأمة الإسلامية إلي طائفتين .

الأولي الكبيرة المسيطرة التي يمثلها الخليفة أو السلطان وتبنت لنفسها مذهب خاص أسموه "اهل السنة والجماعة" وهو مذهب الأكثرية القوية صاحبة السلطان والأمر والنهي والإمبراطورية. والطائفة الأخرى علي العكس من ذلك مضطهدة ومطاردة ومشكوك فيها، حملها النظام وجهازه الديني والإعلامي كافة الجرائم والنهم بدون أن يعتني بتقديم دليل حقيقي علي أقواله، والسبب أنه ضامن الأغلبية الشعبية التي توافقه فورا علي أي شيء يقوله فالأغلبية هي "الجماعة" وما يقوله السلطان أو الخليفة هو "السنة".

فكانت أهل السنة والجماعة في مقابل الفئة الأصغر المغلوب عليها والمتهمة بالكيد للدين وأهله وأطلقوا عليهم كافة الألقاب التي تؤذي مشاعرهم مثل الروافض أو المبتدعة إلي غير ذلك وهم علي الإجمال الشيعة الذين يناصرون علي ابن ابي طالب أو بمعني أوضح يناصرون مبدأ النص السماوي علي ولايته وأحد عشر من أبنائه من

بعده حسب وصية الرسول (صلي الله عليه وسلم). رفضت أغلبية المسلمين مسألة النص وأنكرت وجوده من الأساس ودافعت بطريقتين.

تفاوض بين ركيزتين (خيارين) كلاهما خاسر

الأولي / كانت هي الأبسط إذ وضعوا المعسكر الشيعي بين ركيزتين الأولى هي تكفيرهم إذا أصروا علي وجود نص شرعي بالولاية. والركيزة الثانية الإقرار على أنفسهم بالكذب والافتراء في حال قالوا أنه لم يوجد نص شرعي بولاية علي.

الجزء في الحالة الأولى هو القتل المادي بالسيف وفي الحالة الثانية هو القتل المعنوي أو بالأحرى الانتحار المعنوي والاعتراف بالتدليس في الدين .

هولاكو يتحدى علماء المسلمين

ويفاضهم بين ركيزتين

فاوض يزيد ، الحسين بن علي (رضي الله عنه) كي يبايعه طبقا للشروط التي وضعها يزيد والتي عرضناها في أكثر من موضع.

منها الموافقة علي ان يكون الحسين سيد شباب اهل الجنة عبدا ليزيد الفاسد الفاجر شارب الخمر . وأن لا يلتزم يزيد في حكمه بالقرآن أو السنة تلك شروط الخليفة الأموي التي صارت دستورا فعليا ثابتا للخلفاء من يزيد حتي آخر خليفة عباسي .

وتلك هي الركيزة الأولى كما ذكرنا وهي الموافقة علي شروط "بيعة يزيد" .

الركيزة الثانية هي القتل بالسيف إذا لم يوافق. إما إذا وافق فهذا يعني قبوله الكفر بالإسلام وهو قتل أشد وطأة من القتل بالسيف. تلك هي البيعة التي ظل نظام الدولة الإسلامية مخلصا لها في التطبيق وإن حاول أنصاره تلميع وتحسين الصورة مستغلين جهالة الجمهور المسلم وغياب تعاليم الإسلام الصحيح عنه. وحجر حرية الحوار أو التفكير خارج قيود الدولة التي تحجب الحقائق. بل وتعتبرها زندقة وكفرا يستوجب ضرب الرقاب بالسيف.

فصار الحوار بين ركيزتين سنة مؤكدة لدى السلطة أو الخلافة الحاكمة مع الشيعة تحديدا أو المعارضين بشكل عام. فالجهاز الديني للخليفة لا يردد الا دستور يزيد وبيعته .

نتكلم الآن عن دستور يزيد الذي وضعه ونفذه بالفعل قبل أن يموت وضرب عليه أوضح الأمثلة حتي لا يقول أحد أن يزيد لم يقصد ما جاء علي لسانه من أشعار. **توضح دستوره في الحكم الذي طبقه الخلفاء والولاة والملوك ورؤساء الجمهورية حتي وقتنا الراهن.** أوردنا شعر يزيد أكثر من مرة ولكن نذكر منها شيئا لتوضيح المعني وتذكرنا بباقي الأبيات (ليت أشياخي يبدر شهدوا/ جزع الخرج من وقع الأسل) إلي قوله (لعبت هاشم بالملك / فلا أمر جاء ولا وحي نزل) ثم يحدد الهدف الأعلي للدولة الذي التزم به جميع الحكام من وقته إلي وقتنا الحالي وهو(لست من خندف إذا لم/ أنتقم من آل أحمد ما كان قد فعل) أي أن هدف الدولة هو الانتقام من آل بيت رسول الله وأنصارهم وأسموهم بالشيعة أو الرافضة .

حتى الدين الرسمي الذي أسموه "السنة والجماعة" لا شيء يميزه سوى العداء للشيعة فهو أداة تمييز لمعسكر السنة والجماعة. وليست مهمة الخليفة أو الحاكم في الدولة الإسلامية إقامة المجتمع الإسلامي علي العدالة والمساواة وعدم الإكراه في الدين أو الأجبار بالسيف علي قبول الظلم بل جعلوا الخضوع للحاكم الظالم هو الدين ومن يعصى فجزأؤه القتل .

فلا يحق لمسلم أن يعترض أو حتي يستفسر أو يسأل أو يتظلم من الجور فتلك الأشياء من علامات الرفض أو التشيع وبالتالي تستوجب أشد عقاب قد يصل إلي القتل .

بما أن الحاكم يتولى المنصب ليحكم أمة الإسلام بدون نص ولا التزام بأي شيء سوى حقوقه في الطاعة. وان المسلمين ليس لهم دور في اختبار الحاكم ولا في محاسبته أو النظر في أعماله ؟ وليس هناك مقياس لصحة أعماله طالما أن قوانين الشريعة نفسها غائبة ومجهولة لأكثر الناس.

ويحرص علماء سوء علي عدم توضيح حقائق الدين حرصاً علي مصدر أرزاقهم من أموال السلطان.

اختيار الحاكم المسلم :

الإقتراع بالسيوف والحسم بالسم

والتصويت النسائي بالقباقيب

ألغيت الشورى وترك انتخاب الحاكم لقوانين الصراع الطبيعي. وأصبح الحكم من نصيب الأقوي والأكثر جرأة علي سفك الدماء وخيانة أقرب الناس إليه حتي لو كان أب أو أخ. في أغرب القصص التي تستوجب الدهشة من طريقة تولي الحكام منصب السلطنة أو الخلافة والقول بأن ذلك من الإسلام وقالوا بأن الشريعة تقرر سلطنة المتغلب بالسيف فصار السيف هو صندوق الانتخاب، وميدان المعركة هو ساحة الاقتراع للتحقق من قوة المستحق للحكم.

ليس السيف فقط بل صار السم أهم وسيلة انتخاب في العالم الإسلامي. فالقباقيب صارت وسيلة لاختيار المرأة الأنسب لأن ينكحها السلطان المتغلب بسيفه (صراع نسوي بسلاح القباقيب على منصب السيدة الأولى للسلطنة. وهو صراع تفوز فيه السيدة التي لديها أكبر عدد من الجواري العدوانيات المفرطات في السمنة).

خبرة المغول مع المسلمين خلال عدة عقود قبل غزو بغداد أمّدت هولاءكو بخبرات هامة فكان يعلم أن المسلمين يحتقرونه وكل من جاء لمبايعته منهم كان يعتقد جازماً أنه كافر ويعبد الأصنام.

ومع ذلك كان الكثير من الملوك المسلمين يطلبون عونه لإعادة مُلكهم الضائع أو تثبيتهم علي ملكهم الحالي. والكثير من التجار وأفراد الشعب جاؤا يشكون مظالم نظام الخلافة وفساده ويطلبون عونه لإقرار العدل ورفع الجور عنهم. كان ذلك حال معظم الرعية وليس الشيعة فقط بل معظم السُّنة الكل كان يشكو من ظلم الخلافة الجائر ويرجون عدل هولاءكو وتسامحه خاصة وقد اشتهر عن نظام حكمه إعطاء حرية الفكر والاعتقاد للناس.

وفي أول جلسه له ألقى هولاءكو قفاز التحدي في وجوه علماء الإسلام من سنة وشيعة وسألهم في جلسة جامعة: أيهما أفضل الحاكم الكافر العادل أم الحاكم المسلم الظالم؟

وحقيقة السؤال هو المفاضلة بين حكم المغول وحكم خلفاء بغداد السابقين.

أتقن هولاءكو تكتيك أهل السنة والجماعة في وضع ركيّتين أمام المعارضين كلاهما مدّمر للخصم فمن قال منهم أن الحاكم "الكافر العادل" أفضل يكون كمن شهد أن الكفر أفضل من الإسلام. وإن قال :الحاكم المسلم الظالم أفضل يكون قد فضل الظلم عن العدل ، وذلك مخالف للقرآن الكريم والمعروف من الدين بالضرورة أي أنه كفر أيضاً.

تردد الجمع عن الإجابة حتي تشجع أحد علماء الشيعة وكتب بخط يده إفتاء أن الحاكم الكافر العادل أفضل من الحاكم المسلم الظالم.

كان من المفروض أن ينتفض علماء السنة ضده ليس لأن الفتوي خطأ ولكن العالم نفسه من المعسكر الخطأ. ولكنهم شعروا بحاسة الفساد المتأصل فيهم أن تلك الفتوي سوف ترضي الطاغية هولاءكو الذي هو بالأمر الواقع الخليفة الجديد الذي سوف يطاع من الجميع في القريب العاجل.

فوقّعوا جميعاً علي الفتوي موافقين عدوهم الشيعي. كانت الفتوي تعبر عن الموقف الفعلي للشيعة حتي قبل وصول هولاءكو إلي بغداد بسبب معاناتهم الشديدة منذ بداية الحكم الهرقلي الأموي وصولاً إلي حكم الخليفة المستعصم.

فاضطهاد الشيعة كان رمزاً لإسلامية الحكم وتطبيقاً لسياسة يزيد العليا المتوارثة عبر الأجيال (لست من خندف إن لم أنتقم/ من آل أحمد ما كان فعل).

فالمسألة ليست عدالة بل انتقام ومحو مفهوم العدالة في الممالك الإسلامية لهذا تحداهم هولاءكو بأنه سيطبق العدالة بتطبيق قانون (الياسا الكبرى) الذي وضعه جنكيز خان .

فصار هناك قانون معروف وثابت (الياسا) وليس مفاجأة غير سارة يظهر بها كل حاكم في بداية حكمه. وكانت الياسا تحتوي علي بعض الأشياء القريبة من الإسلام وفيها أشياء قريبة من المسيحية واليهودية ورغم هذا الخليط الذي لا يرضي أحداً إلا أن الجميع شعروا أن هناك قانون معروف وثابت، فكان ذلك مبعثاً للراحة والشعور بالأمن والاطمئنان رغم أنه مخالف للشرعية الإسلامية. ولكن الشريعة غائبة عن المجتمع الإسلامي منذ حكم يزيد مؤسس حكم الطغيان الهرقلي الملحد في الإسلام..

كان دستور يزيد موجه ضد فئة من المسلمين ولصالح الطغمة " الأموية " الحاكمة فقط ولكن الياسا لم تضع تمايزات دينية أو عرقية بين رعايا الدولة ونشرت شئ من المساواة. أو كما تقول الأمثال (المساواة في الظلم عدل) .

غياب العدالة إضافة إلي الفساد المالي والأخلاقي جعل نظام الخلافة مكروها بين الناس خاصة في العاصمة بغداد التي كانت تعرف الكثير عن ذلك النظام وحياته الماجنة لذلك لم يهب أحد للدفاع عن ذلك النظام أو لإعادته بعد سقوطه. ورضوا بحكم سلاطين شيعة من التتار .

وحتي بعد انتهاء حكم السلاطين الشيعة وجاء من بعدهم سلاطين تتار وثنويون لم يعترض عليهم أهل العراق بل خضعوا لهم بترحاب يدل علي عدم إقتناعهم بنظام حكم الخلافة الذي تجاهل الشريعة واضطهد أنصار بيت الرسول (آل أحمد) .

قال ابن خلدون في تاريخه (726/7): فانتظمت ممالك الإسلام في أيدي ولد جنكيز خان من المغل ثم من التتر ، ولم يخرج عن ملكهم إلا المغرب والأندلس ومصر والحجاز وأصبحوا وكأنهم في تلك الممالك خلف من الغز أو السلجوقية أو الخوارزمية ، واستمر الأمر علي ذلك لهذا العهد (إلي وقت كتابته) .

قول ابن خلدون في الفقرة السابقة يدل علي حقيقة إسلام التتار وعوامهم لم يكن يختلف كثيراً عن إسلام عوام المسلمين.

حتى الخليفة نفسه "المستعصم" لم يكن قادراً ولا راغباً في حمل السلاح للدفاع عن نفسه واستبعد منذ البداية أن يقوم هولاءكو بغزو بغداد .

فقال قولته الشهيرة: (إن بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي إن أنا نزلت لهم عن باقي البلاد ولا يهجمون علي وأنا بها، إنها بيتي ودار مقامي).

ذلك آخر الخلفاء العباسيين في بغداد وهو سليل مجموعة من الخلفاء أضاعوا بلاد المسلمين ولم يدافعوا عن القدس ولم يفكروا في استرجاعها، ولا استرجاع ثغور الشام من أيدي الصليبيين حتي حررها مماليك مصر. وحرر صلاح الدين القدس بشكل مؤقت لعدة سنوات ثم استعادها الصليبيون من الأيوبيين كهدية حتي استعادها الخوارزميون مرة أخرى.

حتى المقدسات لم يدافع عنها خلفاء أهل السنة والجماعة وهو ثابتون على هذا الموقف حتي الآن، ودستور يزيد يدخر الانتقام والقتل لآل أحمد حتي بالتحالف ضدهم مع اليهود كما حدث عدة مرات في التاريخ .

ويحدث في كل لحظة حيث يباد الفلسطينيون في غزة ، والمسلمون في لبنان واليمن ويهدد اليهود بطرد العرب من الشرق الأوسط والاستيلاء عليه بأجمعه لصالح إسرائيل.

ومع ذلك لم يطلق اليزيديون طلقة واحدة ضد جيوش اليهود والصليبيين التي تجتاح بلاد المسلمين.

فهكذا أوصاهم يزيد بأن الانتقام مخصص لسحق "آل أحمد" جزاء لقتله المشركين وصناديد بني أمية في "غزوة بدر" الذين أسماهم يزيد (أشياخي بدر).

لم يدافع أهل بغداد والعراق عموماً عن نظام الخلافة لسبب جوهري وهو أن ذلك النظام المستبد الظالم المزور للدين والمتجاوز على العرف والأخلاق قد ربي الناس بمرور الأجيال علي السلبية والجبن وعدم الاستعداد للتضحية والوقوف حتي أمام الغزاة الأجانب دفاعاً عن البلاد. وهذا ما نلاحظه حالياً في الشعوب العربية التي تأتي حتي الاستنكار اللفظي ويخافون من مجرد إبداء أي رأي أو كلمة تغضب السلطان الظالم المحارب لدين الله .

هذا ما يسميه بعض الناس بالخذلان. ومعناه أن يكون الإنسان منهزماً ذاتياً وغير قادر علي أن يعترض بلسانه ناهيك أن يقاتل بنفسه فليس لديه مقدسات يغير عليها ولا يغير حتي علي عرضه.

أو كما قال مؤسس حركة طالبان الملا محمد عمر، لمدير المخابرات السعودية الذي طلب منه أن يسلم إليه بن لادن ليسلمه للأمريكان. فسأله الملا عمر: وهل أنت وزير سعودي أم وزير أمريكي؟. هل أنت (بي غيرت)؟ أي هل أنت "قواد"؟.

لقد أصبح المسلم المعاصر في ظل تلك الأنظمة مسخاً للإنسان فهو (بي غيرت) ولن يدافع عن أي شيء ولا يرغب في غير الحياة حتي لو غرق في المذلة والعار وتلك هي شعوبنا الآن أمام اليهود، وبالأمس أمام التتار.

وذلك إنجاز كبير للحكم القهري الخارج عن الدين والشريعة والإنسانية. هذا الخذلان لم يظهر فقط في بغداد بل في أماكن عديدة دخلها التتار وفعلوا بها الأفاعيل. امرأة من التتار دخلت وقتلت جماعة من أهل البلدة وهم يظنونها رجلاً فلما وضعت السلاح فإذا هي امرأة فقتلها رجل كان قد أخذته أسيراً .

ويقول أيضاً: سمعت من بعض أهل البلدة أن رجلاً من التتار دخل داراً فيها مائة رجل فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتي أفناهم ، ولم يمد أحد يده اليه بسوء!.

ووضعت الذلة علي الناس فلا يدفعون عن أنفسهم قليلاً ولا كثيراً ، نعوذ بالله من الخذلان !. هذا نص قول المؤرخ).

ولم يسلم إلا من عمل له نفقاً يختفي فيه ! وبقي القتل في المسلمين عدة أيام ثم ألقى التتار النار في البلد فأحرقوها.

ثم إنهم ملكوا بلد(بيلقان) عنوة في شهر رمضان سنة ثمان مائة وست مائة ووضعوا السيف فلم يبقوا علي صغير ولا كبير أو امرأة. حتي إنهم يشقون بطون الحبالى ويقتلون الأجنة! وكانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونها !.

وكان الإنسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة فيقتلهم واحداً بعد واحد ، حتي يفرغ من الجميع ولا يمد احد منهم يداً)..

ان إسلام سلاطين التتار لم يكن يختلف عن اسلام سلاطين المسلمين بل كان يمتاز عنهم بالتزام التتار لقوانين محددة مثل الياسا كما قلنا.

كما التزموا مع الرعايا سياسة التسامح مع الآراء المخالفة وقبول الاختيار الحر للعقائد والأفكار وتلك كانت ثورة كاملة أدهشت المسلمين الذين لم يفهموا الإسلام الا أنه عملية ثار وقتال وكراهية بين السنة والشيعة.

وقد نصح بعض مستشاري الخليفة المستعصم بأن يمنح هولاء لقب سلطان علي المناطق التي يحكمها ويصبح واحداً من السلاطين التابعين للخليفة مثل ملوك الخورازميين أو ملوك السلاجقة.

وأن يمنحه هدايا قيمة ترضية حتي يبتعد عن فكرة الهجوم علي بغداد. ولكن المستعصم الموصوف بضعف الرأي وخوّر العزيمة رفض الاقتراح وأرسل إليه هدايا وضيعة لا تناسب مكانته فغضب هولاء وصمم على الهجوم علي بغداد واخذ كل ممتلكات الخليفة. وفي الحقيقة اعتمدت الخلافة علي أنها الحامي لمذهب "السنة والجماعة" ضد الشيعة واعتمد الخليفة علي الصراع داخل الأمة حتي يحافظ علي شعبيته وتأييد الأغلبية السنية له.

فمال بعض الخلفاء العباسيين إلي التشيع مثل الخليفة الناصر العباسي الذي أعلن تشييعه صراحة لأنه شعر بخطر تقسيم الأمة وأن ذلك الصراع يجب أن ينتهي وأنه صراع سياسي وأن الجانب الاعتقادي فيه مفتعل وغير صحيح ويمنع توحيد الأمة وانطلاقها في بناء الداخل لحماية نفسها من القوي الكبرى المتربصة في الخارج.

لن يأتي الا بتوحيد الامة ونشر العدالة والمساواة والتزام بقوانين شرعية من القرآن و السنة. وليس بأحكام الأمر الواقع والخشية من سيف السلطان المتغلب.

حاول الخليفة الناصر أن يمد يده إلي بعض الشباب في العائلات الحاكمة الذين لديهم الميل إلي الخروج من المصيدة الطائفية التي أضعفت الأمة وحرفت الدين.

وكما رأينا في كتيب سابق تراسل مع الملك الأفضل علي ولي عهد صلاح الدين الأيوبي في دمشق وتبادلا شعراً يدل علي التوجه نحو التشيع.

كما أن ولي عهد اليمن وهو نجل شقيق صلاح الدين الأيوبي عندما غضب عليه أبيه بسبب تشيعه وطرده. حاول أن يذهب إلي الخليفة الناصر في بغداد ولكنه عاد من الطريق عندما علم بموت أبيه وأنه أصبح سلطاناً علي اليمن.

ونظرة إلي تلك العلاقات عالية المستوي التي أنشأها الخليفة الناصر يتضح أنه كان ينوي إحداث تغير جذري في الإمبراطورية العباسية وأن يوحد الإسلام يتخلي عن التقسيم الطائفي الذي دمر الأمة وأفسد الحكم، وكان الخليفة الناصر يرى أن الصداقة مع التتار أو حتي التحالف معهم ممكن بصفة أنهم أصبحوا جزءاً من النسيج الإسلامي بكل عيوبه مع بعض المميزات التي انفردوا بها .

كالميل إلي العدالة والإلتزام بقانون ثابت والتسامح مع الأديان والمعتقدات والإختيار الشخصي الحر للدين والعقيدة بدون تدخل من الدولة .

ويقال أن الخليفة الناصر كان يرسل ملوك التتار ويرسل إليهم الهدايا كما فعل الكثير من سلاطين المسلمين وعدد من الخلفاء.

كان الناصر يرى أن الخلفاء الذين تحالفوا سرا مع الصليبيين ومنحوهم أراضي في الشام وتنازلوا لهم عن القدس كانوا يخطرون بمصير الدولة الإسلامية لأن الصليبيون كانوا يتوسعون ويسيطرون علي الأرض وطرق التجارة محاولين استبعاد المسلمين من كل شيء أو كما قال أمبراطور ألمانيا لسلطان مصر الأيوبي (لنا كل شيء، ولا شيء لكم).

والتحالف مع هؤلاء من وجهة نظر الخليفة الناصر والعديدون مثله لم يكن تحالفا مفيدا بل خطيراً، بينما التتار كانوا مقبلون علي الإسلام بشيء من الحماس وكثير من الجهل أي أنهم كانوا جزءاً من النسيج الإسلامي، وسلاطين التتار أفضل من كثير من سلاطين المسلمين وخلفاء بغداد، وأقل فساداً منهم. وبالتالي فإن التحالف مع التتار سيكون إضافة للمسلمين وليس تهديداً عليهم، إلا أنهم قد يبدلون في خريطة الأسر الحاكمة للممالك الإسلامية وذلك أمر طبيعي إن حدث.

ولكن رؤية الناصر لم تنجح واختفت بوفاته. وبذل بعض الخلفاء من بعده محاولات ضعيفة لمجرد الميل العاطفي إلي آل البيت وتخفيف البطش الرسمي بهم .

إنقسام التتار:

معسكر هولاکو ضد معسكر بركة خان

التتار انقسمت صفوفهم وتصارع ملوكهم الكبار علي الحكم والغنائم وكان الإنقسام الأهم هو الصراع بين بركة خان(حاكم بلاد الغرب من قزوین إلي القوقاز وتبريز وبلاد الخوارزميين وكانت قبائل القبجاق تحت حكمه) وهولاکو كان يريد التمدد إلي الشام ومصر وبركة خان يريد التوسع في الأناضول وبلاد الأتراك.

النتيجة الهامة من هذا التقسيم أن الكثير من ممالك مصر كانوا من المناطق التي سيطر عليها بركة خان وتشردوا وأسروا وبيعوا في الأسواق كعبيد ووصل بعضهم إلي مرتبة السلطنة أو قيادة الجيوش في مصر والشام في ظل النظام الأيوبي ثم المملوكي فيما بعد.

الملك الصالح نجم الدين أيوب اشترى الآلاف من هؤلاء المماليك وكون منهم قوة عسكرية أسماهم المماليك البحرية وأسكنهم في جزيرة الروضة في النيل وأصبحوا هم قوته العسكرية الأساسية وليس الأكراد الذين ينتمي إليهم الأيوبيون. طبعاً أن ينشأ صراع بين الطرفين وكان المؤرخون يعتبرونه صراعاً بين الأكراد والأتراك.

في النهاية استولي المماليك البحرية علي حكم مصر وطرّدوا الأيوبيين منها، ثم من الشام بعد معركة عين جالوت التي كانت ضد قوات هولاكو التي استولت علي الشام وكانت تريد الزحف علي مصر.

فصدها المماليك الذين وفدوا من مناطق يسيطر عليها بركة خان (مثل السلطان قطز الذي قاد المعركة كسلطان لمصر وهو من عائلة خورازم شاه الملكية ومعه صديقة بيبرس وهو من قبائل القابجاك التي تعيش تحت ولاية بركة خان).

وقد نشأت علاقات قوية بين بركة خان والمماليك عندما تولي بيبرس حكم مصر فزوجه أبنته "إلتطمش" وأنجبت له ولدان توليا السلطنة من بعده ولكنهما لم يكونا موفقين فلم يستمر الحكم لآل بيبرس. واختطف الحكم منهما أمراء من القباچاق والشركس.

التار والشریعة

قال المقریزي في المواعظ والإعتبار (1447). فلما كثرت وقائع التتر في بلاد المشرق والشمال وبلاد القباچاق ، وأسروا كثيراً منهم وباعوهم تنقلوا في الأقطار اشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم "المماليك البحرية، ومنهم من ملك "تسلطن علي" ديار مصر وأولهم المعز أيبك ...

ثم كثرت الوافدين (من تتر بلاد بركة خان) في أيام الملك "السلطان" الظاهر بيبرس وملؤوا مصر والشام ، وخطب للملك بركة علي منابر مصر والشام والحرمين فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم!. هذا وملوك مصر وأمرأؤها وعساكرها قد ملئت قلوبهم رعباً من جنكيز خان وبنيه، وإمتزج بلحمهم ودمهم مهابتهم وتعظيمهم ، وكانوا إنما ربوا بدار الإسلام ولقنوا القرآن وعرفوا أحكام الملة المحمدية ، فجمعوا بين الحق والباطل وضموا الجيد إلي الرديء، وفوضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا إليه النظر في الأقضية الشرعية كتداعي الزوجين وارباب الديون ونحو ذلك. واحتاجوا في ذات أنفسهم إلي الرجوع لعادة جنكيز خان والإقتداء بحكم الیاسة!. نصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما إختلفوا فيه من عوايدهم، والأخذ علي يد قويعهم وإنصاف الضعيف منه علي مقتضي ما في الیاسة!. وجعلوا إليه من ذلك النظر في قضايا الدواوين السلطانية عند الإختلاف في أمور الإقطاعات لينفذ ما أستقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب، وكانت من أجل القواعد وأفضلها حتي تحكم القبط في الأموال وخراج الأراضي فشرعوا في الديوان ما لم يأذن به الله تعالي، ليصير لهم ذلك سبيلاً إلي أكل مال الله تعالي بغير حقه.

بببرس قاتل التتر في عين جالوت وختنهم تحت قلعة الجبل

وقال المقرئ في السلوك (264) : وكتب السلطان إلي النواب بإكرام الوافدية من التتار والإقامة لهم ما يحتاجون اليه من العليق وغيره وسيرت إليهم الخلع والإنعامات والسكر ونحوه ، وساروا إلي القاهرة فخرج السلطان إلي لقائهم في سادس عشري ذي الحجة ولم يتأخر أحد عن مشاهدتهم ، فتلقاهم وأنزلهم في دور بنيت لهم في اللوق ظاهر القاهرة وعمل لهم دعوة عظيمة هناك ، وبعث إليهم الخلع والخيول والأموال ، وأمر (منح مرتبة أمير) السلطان أكابره ونزل باقيهم في جملة البحرية. وكانوا مائتي فارس بأهاليهم فحسنت حالهم ودخلوا في الإسلام!.

وقال في المواعظ والاعتبار (1204): فلما بلغ التتار ما فعله السلطان مع هؤلاء وفد عليه منهم جماعة بعد جماعة، وهو يقابلهم بمزيد الإحسان فتكاثروا بديار مصر وتزايدت العمائر في اللوق (منطقة في القاهرة تطل على النيل وترتبطها لينة بفعل ماء النيل لهذا سميت اللوق أى اللينة) وما حوله ، وصار هناك عدة مناطق عامرة.

ولما قدمت رسل بركة في سنة إحدى وستين وستمئة أنزلهم السلطان الملك الظاهر باللوق وعمل لهم فيه مهماً (حفل ضيافة) ، وصار يركب في كل سبت وثلاثاء للعب الأكرة باللوق في الميدان. وفي سادس ذي الحجة من سنة إحدى وستين قدم من المغل والبهادرية زيادة علي ألف وثلاثمائة فارس فأنزلوا في مساكن عمرت لهم باللوق بأهاليهم وأولادهم. وقال العيني في عقد الجمان (180) : وفيها (سنة 661) في سادس ذي الحجة وصلت جماعة كبيرة من التتار مستأمنين وفي الإسلام راغبين ، فكانوا زهاء ألف نفس وفيهم من أعيانهم: كرمون ، وأمطغة ، ونوكيه ، وجبرك ، وقيان ، وناصغيه وطبشور، وتبتو ، وصبخي ، وجوجلان ، وأجقرقا وأرقرق ، وكراي ، وصلاغية ومنقدم، وصراخان.

وهؤلاء كانوا من أصحاب بركة خان وكان قد أرسلهم إلي هلاون نجدة (يقصد إلي هولاكو في العراق) فأقاموا عنده مدة ، فلما وقع بينه وبين بركة وتمكنت العداوة كتب بركة إليهم بالسير إلى عساكر الديار المصرية ، ولما وصلوا أسلموا وطهروا (اختنوا)، قدم كبارهم المذكورون وأمروا (منحو رتبة أمير) ، وعُينت لهم الإقطاعات والطبلخانات ، وأفيضت عليهم الصلات والخلع والهبات ، وأنزلهم باللوق.

ارازل القاهرة ينشدون للمغول : حرجالاتك.. برجالاتك.

تقول المصادر التاريخية أن التمازج بين المصريين والتتار مرّ بصعوبات نتيجة اختلاف الثقافات والعادات. فمثلا مجموعة الجنود التتار الذين سكنوا قلعة الروضة مع عائلاتهم إلي جانب المماليك البحرية وعائلاتهم سريعا ما نشب الخلاف بينهم بسبب اختلاف العادات في تناول الطعام وذبح الذبائح . فأشتكي المماليك للسلطان من أن جنود التتار يأكلون كل شيء يمشي علي الأرض حتي الكلاب والقطط وكانوا لا يذبحون الذبائح علي طريقة المسلمين بل كانوا يشقون صدر الماشية ويمد أحدهم يده حتي يصل إلي القلب فينتزعه إلي الخارج أو يهرسه في داخلها حتي تموت.

وطلب المماليك بإبعاد التتار إلي مكان آخر لهذا أبعدهم بببرس إلي منطقة اللوق وبني لهم مساكن هناك .
ثانيا : ان التتار قد أعلنوا إسلامهم بالنطق بشهادة التوحيد فقط. ويبدو أنه في ذلك العهد كانت السلطة الحاكمة وأفراد الشعب لا يعترفون بإسلام شخص مالم تجري له عملية ختان.

لهذا جمع بيبرس كل ضيوفه من عسكر التتار (وعدددهم عدة آلاف) ولم يكذ يتخلف أحد من سكان القاهرة عن مشاهدة المنظر النادر والمناسبة السعيدة التي لا تخلو من مشاعر الشماته في التاتار أعداء الأمس القريب جدا. وأخذهم السلطان إلي أسفل القلعة لأجراء عملية ختان جماعي للفرسان التتر (والغريب أن بيبرس الذي قتالهم في معركة عين جالوت قام بختانهم أسفل قلعة الجبل).

ظننت في بداية الأمر أن بيبرس كان يمزح مع التتار ولكن ظهر أنه يطبق أحد الأركان الإسلامية كما كانوا يرونها في ذلك الوقت فلا إسلام بدون ختان. فكانت احتفالات ختان الأمراء الصغار تعتبر مناسبة دينية واجتماعية توزع فيها الذهب والفضة والحلوى علي فقراء العاصمة الذين يتجمعون حول القلعة للاحتفال .

وكما قلنا فإن أراذل القاهرة الذين تجمعوا كانوا يخلطون بين الفرح والبهجة بتلك المناسبات القليلة في حياتهم التي يجمعون فيها بين الفرح لتحقيق الأحلام وبين إطلاق النكات والأغنيات الشعبية التي قد ينفلت عيارها في هذه المناسبات السعيدة.

ومع ذلك ظلت ذاكرة الأدب الشعبي المصري تحتفظ بشذرات قليلة جدا من الأغنيات الذي خلدت تلك اللحظات التاريخية النادرة. ورغم أنها غير موثقة إلا أنها مازالت تحمل عبق اللحظة التاريخية التي لم تتكرر أبدا. ولكن امسكتها وخلدتها عبقرية الشعب المصري الساخر دوما والمظلوم أبدا.

وكما ذكرنا عن الذباب والعسل عند الحديث عن المجاعات فإن الأحداث السعيدة مثل احتفالات الختان أو الزواج وغيره كانت تستدعي مقداراً أكبر من المرح .

وظلت احتفالات الختان حتي وقتنا هذا تحمل النذر اليسير من أثار تلك المهرجانات المصرية للأراذل. خاصة عندما يكون أصحاب الحفل المختونين هم من التتار أبطال الحروب المخيفين ، أصحاب اللحي والشوارب التترية العجيبة والغريبة على المصريين.

فمن المأثورات التي تحمل بصمات المشاعر الشعبية المضطربة في تلك المناسبة التترية:

هرجالاتك، بر حالاتك زي البغل ما بين اخواتك

دمك بَقْ وعندنا حق لما نضحك على شنباتك، هرجالاتك برجالاتك

وهكذا هم أراذل القاهرة عندما يحتفلون بختان الضيف التتري المخيف..

وقد قرأنا عن الأرازل عندما يبكون ويلطمون أسفاً علي مقتل الظالم والمظلوم كما في حوادث الانتقام لاغتيل السلطان خليل قلاوون التي كانت أسوأ أيام مرّت بلقاهرة . حسب قول المقريري .

ولكن أراذل القاهرة يعرفون كيف يفرحون ويهنتون الممالك الجدد من التتر بالختان المبارك ودخول الإسلام بسلام آمنين، (وهرجالاتك برجالاتك) .

زاد بيبرس واحدا من الطقوس الهامة الدالة علي صحة الالتزام بالإسلام متبعاً بذلك سنة أرساها الخليفة العباسي (المنتصر) الذي بعد أن أضاع ثغور المسلمين أراد أن يثبت أنه مسلم حقيقي فكتب إلي ولاة الأقاليم بأن يلزموا الرعية وأنفسهم بإرتداء سراويل الفتوة .

وزاد السلطان العزيز الأيوبي في مصر بأن فرض ذلك علي الرجال والنساء جميعاً وأمر الشرطة بالتفتيش عليهم في الطرقات للتأكد من التزامهم بالقانون. وهدد بمعاقبة أي شخص ذكراً كان أو أنثى أن يخرج من بيته بدون سراويل!!!.

وذلك كالتزام ديني وأخلاقي صادر من الخلافة في بغداد ومن السلطنة في القاهرة زاد بيبس عندما تولي السلطنة منع أي امرأة من أن تلبس زي الرجال أو أن تلبس عمامة !! وأعطاهم فرصة ثلاث أيام لتنفيذ الأمر وبعد ذلك إذا ضبطت إحداهن في الشارع تسلب منها ملابسها !!!.

وهكذا يحدد السلاطين شرائع الإسلام التي يرونها مناسبة ويطبقونها بوسائلهم الخاصة بدون مراعاة للآداب الشرعية وحرمة البشر رجالاً ونساءً .

فالخليفة الذي يُفَرِّط في أراضي المسلمين يُعَوِّض ذلك بفرض لبس سراويل الفتوة عليهم وكأن سراويل الفتوة ستعفيه من مسؤولية التفريط في أراضي المسلمين.

علي حسب المبدأ الذي أكده عليهم كبار علماء المسلمين بالتفسير الخاطئ للآية الكريمة (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) والحسنات هي سراويل الفتوة والسيئات هي التفريط في أرض المسلمين وهذا يذهب ذاك.

جيش الخلافة المترهل:

قال ابن العبري في تاريخه (222): وفيها (سنة 635) غزا التاتار العراق ووصلوا إلي تخوم بغداد إلي موضع يسمى زنكباد وإلي "سُر من رأي"، فخرج اليهم مجاهد الدين الدويدار وشرف الدين إقبال الشرايبي في عساكرهما فلقوا المغول فانهزموا، ووصل التاتار إلي خانقين، فلقيتهم جيوش بغداد فإنكسرت (جيوش بغداد) وعادوا منهزمين إلي بغداد بعد أن قتل منهم خلق كثير، وغنم المغول غنيمة عظيمة. وعادوا.

أخطر الأسئلة

لماذا استخدم التتر المسلمون الياسا في بلاد المسلمين؟؟

نبدأ هذه الفقرة بمقتطفات من كتابات المقرئ في كتاب المواعظ والإعتبار وهي تتعلق بواحد من أهم الموضوعات التي يمكن بحثها وهي وضع الشريعة في بلاد الإسلامية في ذلك الوقت المبكر في الثلث الأول من القرن السابع الهجري .

حيث ظهر التتار بقوة علي المسرح الإسلامي ليس فقط كقوة غازية همجية بل أيضاً كقوة تحاول الاندماج مع المجتمع المسلم في المنطقة خاصة بعد أن إستولي هولاكو علي عاصمة الخلافة في بغداد وقتل الخليفة متسبباً في واحدة من أكبر الهزات التي ضربت الأمة الإسلامية منذ انقلاب يزيد علي إمارة الحسين ابن علي ابن أبي طالب وقتلة في معركة كربلاء واعتماد يزيد المبدأ الجبري في الحكم أي تولي المتغلب بسيفه علي منصب الخلافة بدون رضا الأمة أو مشاورتها .

ليس هذا فقط بل الأخطر منه أنه أعلن كفره بالإسلام حين قال شعرا، ثم أكد ذلك وطبقه عمليا علي أرض الواقع بعمليات إنتهاك عظمي لشرائع الإسلام، وقد قال يزيد شعراً:

(لعبت هاشم بالملك/ فلا أمر جاء ولا وحي نزل) أي أن الإسلام لم يكن شريعة سماوية بل كان خدعة من بني هاشم لتصدر قيادة العرب.

ثم قام يزيد بعد ذلك بقتل الحسين وأصحابه بعد حصارهم ومنع الطعام والماء عنهم ثم تمزيق أجسادهم وقطع رؤوسهم وأرسالها فوق الرماح إلي قصره بدمشق ثم أرسل يزيد جيشا لتنفيذ مجزرة للصحابه، وتعدّي جيشه بالفحشاء علي نسائهم ونهب أموالهم. وأباح المدينة المنورة لجيشه مدة ثلاثة أيام. وصل الامر إلي قصف الكعبة بالمنجانيق وإحراقها للقضاء علي ثورة عبد الله ابن الزبير ضد حكم يزيد وبني أمية.

لم تطبق الشريعة منذ عهد يزيد الي عهد المستعصم الذي قتله هولاكو في بغداد. فحكم كل سلطان من الممالك الإسلامية بأهوائه كشريعة مقدسة لا صلة لا بشرائع الدين بل هي فقط لتمكين الحكم الجبري للخليفة وبطانته أو قبيلته، (بني أمية ، بني العباس ، بني أيوب).

لم تكن هناك شريعة كما أن الخلفاء لم يحققوا أبسط المواصفات في من يتولى أمور المسلمين ورعاية مصالحهم وتفشي الظلم والتعدي علي الأموال والأعراض والتفريط في أراضي المسلمين وتقديس الحاكم ووضعه فوق جميع أنواع المساءلة حتي القوانين التي يضعها بنفسه كان غير ملزم أن يطبقها علي نفسه الا أن يري لنفسه مصلحة في ذلك الشيء الهام الذي يجب أن نلاحظه ونضعه في الاعتبار عندما نقرأ ملاحظات المقريري هي ان الانقسام بدأ بين ملوك التتر الأقوياء .

المعسكر الأول والأكبر كان بقيادة هولاكو الذي أستولي علي بغداد وكان يمتلك فرصة ليكون خليفة المسلمين لولا سوء تدبير أو أنه لم يدرك أهمية أن يكون خليفة للمسلمين الا بعد فوات الأوان وضياع الفرصة لعدة أسباب أهمها منافسة ابن عمه بركة خان وتآمر كل منهما علي الآخر وعرقلة تمدد مملكته، وتنافسهما علي اكتساب المسلمين إلي جانبه. فبينما حقق هولاكو تقدما كبيراً في المناطق الخاضعة له خاصة في العراق وإيران وخراسان وما وراء النهر وتحالف الشيعة معه في تلك المناطق حتي نشأت هناك دولة.

" الإلخانية "التي حكمها في الغالب أباطرة تثار يعتنقون المذهب الشيعي ولهم مستشارين كبار من علماء المذهب الأثنى عشري مفكرية وخبراء السياسة فيه .

وقد ساد بينهم تفاهم كبير من حيث إدارة الدولة والتوجه العام لها فتوجهوا إلي تأكيد معني التسامح الديني في الدولة وتركيز الدولة علي مسائل الأعمار والنهوض بالتعليم وتدريب الكوادر علي كافة المهارات بديلا عن تزكية الصراع المذهبي للإحكام قبضتهم على الحكم مستفيدين من انقسام الأمة وتشردمها. وحصر اهتمامها في الصراع المذهبي حتى قبل المخاطر الخارجية التي تهدد الأمة والدين.

وفي معظم الوقت سار التفاهم بين الطرفين (الشيعة والتاتار) وحققوا إنجازات كبيرة منها إعادة اعمار بغداد بشكل أفضل مما كانت عليه. ثم بناء المرصد الفلكي في مدينة مراغة والجامعات الملحقة به والمكتبة الضخمة في مراغة وكليات الطب والفلك والعلوم الدينية بما لم يكن له نظير قبل الاحتلال التتري لبلاد المشرق الإسلامي. وكانت عقد التفاهم بين التتار والشيعة .

2- رأي التتار في الشيعة كتلة كبيرة معادية لنظام الخلافة العباسي ومتضرره منه وأصيب بالكثير من النكبات علي يده علي مر القرون الماضية كما رأي التتار في علماء الشيعة قدرة علي الحوار والإقناع مع التيارات المختلفة وشرح وجهة نظرهم بوضوح بدون عصبية وتعصب مع ميل التتار إلي تلقي العلوم الدينية مع التسامح الديني هم أنفسهم كانوا يبدلون معتقداتهم أحيانا من سنة إلي شيعة أو من الإسلام إلي الوثنية وكان السنة والشيعة في تنافس علي الاستحواذ علي التتار وإدخالهم في مذهبهم ولكن في مناطق هولاء كانت الغلبة للشيعة حتي بعد وفاته .

استفاد هولاء من نفوذ الخلافة العباسية علي بلاد الشام والأناضول وحافظ علي علاقات المودة مع أصدقاء الخلافة في تلك المناطق خاصة في الشام رغم أنها معروفة بعداؤها الشديد للشيعة ولكن هذا لم يكن أمراً ذا بال لدي هولاء الذي لم يكن مسلماً رغم انه نطق بالشهادتين ليتزوج أميرة أبنه ملك جورجيا (بلاد الكرج) ولكن إسلامه لم يتعد النطق بالشهادتين بدون الإيمان أو تطبيق شيء من شرائع الإسلام (شأن معظم المسلمين وحكامهم في ذلك الوقت) فهكذا كان الإسلام الشائع بين الخلفاء الا ما ندر منهم كما أنه يتطابق مع إسلام العوام الذين يجهلون معظم شرائع الإسلام الا قليل من المسائل الشخصية والعبادات والطقوس من صلاة وصيام وحج وزواج وميراث.

وكما قال المقرئ في ملاحظته عن التتار: أنهم تركوا تلك المسائل للقاضي الشرعي بينما مسائل المعاملات والحقوق كانوا يرجعون فيها إلي (وثيقة الياسة) التي كتبها جنكيز خان وكأنهم يملأون الفراغات التي وجدوها في التي كتبها جنكيز خان .

المجتمع الإسلامي وشرائعه وقضائه كانوا يرجعون إلي ما قال منه المقرئ (الحاجب) ولا ندري إذا كان الحاجب وظيفة رسمية حددتها الدولة أو السلطان أو شخص أنفقوا عليه للقضاء بينهم.

يقول المقرئ أنهم نصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما أختلفوا فيه من عوائدهم والأخذ علي يد قويمهم وإنصاف الضعيف منه علي مقتضي ما في (الياسة).

في تلك الفقرة إقرار بأن العدالة مفقودة في المجتمع الإسلامي ولا يمكن الحصول عليه من خلال القضاء الذي لا يمتلك قانوناً معروفاً يلتزم به.

وان القوي في المجتمع المسلم من الصعب أخذ حق الفقير منه هذا بالنسبة للتتار أصحاب السيادة والقوة الحقيقية في البلد فما بالك بالمسلم العادي الذي لا حول له ولا قوة .

يضيف المقرئ تابع تلك الملاحظة : أن ذلك الحاجب الذي يطبق الياسة جعلوا إليه النظر في قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف في أمور الأقطاعات لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديون وقواعد الحساب وكانت من أجل القواعد وأفضلها .

وهنا نقطتان : الأولى هي أن القضاء الإسلامي لم يكن مستقلاً بل أن كل سلطان أو خليفة كان يضع علي رأس القضاء قضاة مخلصين له شخصياً ولا شأن لهم بالشريعة الإسلامية بل إرضاء الحاكم وتنفيذ أوامره وإلا تعرضوا للعزل ومصادرة الأموال والضرب والإهانة أو القتل وتشويه السمعة بالإشاعات والأكاذيب الرسمية التي يروجها رجال السلطان في المساجد والأسواق وبين الناس.

وكل سلطان جديد أول ما يفعله هو تغيير طاقم القضاة واستبدالهم برجالهم الأقرب والأكثر طاعة. ويليه في الأهمية استبدال قادة الجند والأمراء الكبار بقيادة جدد يترقية مماليك مقربين من السلطان حتي يتولي

المناصب الأعلى ومسألة توزيع الإقطاعات تعني ببساطة توزيع الأراضي التي هي المصدر الرئيسي للثروة علي كبار أعوان النظام خاصة أمراء الجنود وكبار رجال الدولة والقضاة ومع تغير السلطان بسلطان آخر يتغير توزيع الإقطاعات وذلك يعادل ثورة داخلية في النظام نفسه لأجل هذا فإن الدواوين السلطانية وثيقة الصلة بمسألة الإقطاعات وتوزيعها وكل ديوان يشرف تقريباً علي مصدر من مصادر دخل الدولة وجميعها مصادر للدخل المشروع وغير المشروع .

لأجل هذا أهتم التتار بتطبيق قواعد الياسة علي أوضاع الدواوين وقواعد الحساب وكانت من أجل القواعد وأفضلها وكان يتولاها عادة المسيحيين في مصر لأنهم أكثر تعليماً وممارسة للتجارة والحساب وكان ذلك موضع تشنيع في البلد ونشأت في ذلك فتن طائفية ذات إبعاد سياسية وتنافس علي السلطة وشهدت مصر الكثير من تلك الأحداث التي شهدت صدام بين عوام المسلمين وعوام المسيحيين تخللها اعتداء علي الكنائس والممتلكات المسيحية خاصة في العاصمة .

من أجل هذا ولسد تلك الذريعة كان مدير الديوان أو حتي رئيس الوزراء يستدعي كبير المشرفين علي أمور الدواوين المسيحي ويجبره علي إعتناق الإسلام بالقوة ويظل يضربه حتي يسلم طائعاً بالقوة وبهذا يحكم الأمير القوي قبضته علي رقبة المحاسب النصراني ولا يطعن أحد في ولاء الأمير لأهل السنة والجماعة وظهرت أحكام دينية عجيبة تحض علي اضطهاد المسيحيين كواجب ديني إسلامي مثل قول أحد كبار أمراء المغرب العربي عند مروره بالقاهرة في طريقة إلي الحج وكان السلطان يتهاياً لحرب في الشام وكانت هناك بقايا فتنة طائفية في القاهرة، فغضب الأمير المغربي وصاح في السلطان كيف تنتصرون وأنتم لديكم نصاري وأغنياء يركبون الخيل في القاهرة. بينما يجري خلفهم أطفال المسلمين ويقبلون أرجلهم طالبين منهم الصدقة.

وكان أولي بالأمر المغربي أن يطالب السلطان برعاية هؤلاء الفقراء وأن يتوقف عن جباية الأموال منهم لتمويل حروبه التي لا تنتهي في الشام.

لا أحد كان يتكلم عن العدالة الاجتماعية أو حقوق الفقراء أو المساواة بين الناس والعدل بينهم.

قلنا أن التتار انقسموا إلي معسكرين لكل منهم محور في مصر والشام منفصل عن الآخر وربما لا يدري شخصيات أفراد ولا بتنظيمه ولكنه بلا شك كان يشعر بوجود المحور الآخر .

أثناء وجود هولاء في الشام وسيطرته علي حلب ثم دمشق وكما ذكرنا إكتشف الاستراتيجية الأفضل للسيطرة علي بلاد العرب كلها والتي لم تخضع بعد للتتار والتي كما ذكرنا كانت تشمل المغرب والحجاز واليمن إضافة إلي مصر والشام.

علم هولاء بعد فوات الأوان وقد هزمت قواته في معركة عين جالوت إن القوة التي هزمته والتي كانت بقيادة السلطان قطز وقائد قواته بيبرس وكلاهما أقرب إلي محور بركة خان. فقطز من عائلة خوارزم شاه وبيبرس من قبائل القبجاق المشهورة بالفروسية والبطولة.

وبهذا وبشكل غير مباشر يعتبر الانتصار في معركة عين جالوت انتصاراً لمحور بركة خان في مصر والشام التي قال المقرزي أنه كان يدعي له في مساجد تلك البلاد (وتلك المعلومة تحتاج إلي مزيد من التأكيد) فربما التبس الأمر علي المقرزي لأن أبن السلطان بيبرس الذي تولي السلطنة من بعده كان يسمى بركة خان أو الملك السعيد. وأمه هي التطمش ابنة السلطان المغولي بركة خان .

إنتصار عين جالوت أدى إلي تصفية كاملة للمحور الموالي لهولاكو في الشام ومصر وكما ذكرنا سابقا كان رأسهم في الشام شيخ الإسلام ابن تيمية وعدد من المشايخ الكبار منهم شيخ الشيوخ محمود نظام الدين (الشيخ قازان كما وصفه أهل دمشق).

كان قائد محور هولاكو في مصر هو سالار نائب الحاكم لمدة 11 عاما وقصته مذكورة في هذا الكتاب ونهايته كانت تشبه نهاية الخليفة المستعصم حيث مات جوعا فوق أكوام من الذهب.

وكان السلطان المملوكي يرسل رسالة مشفرة عبر التاريخ بأن المماليك قد أكتشفوا محور التآمر التابع لهولاكو والهادف إلي الانقلاب علي النظام المملوكي والإلتحاق بهولاكو وورثته في بغداد.

بركة خان بدوره سارع إلي تعزيز قوة محوره الحاكم في مصر والشام عبر المماليك فزوج السلطان بيبرس بأبنته، علي أمل أن تحكم ذريتها مصر والشام بعد بيبرس وقد حدث ذلك بالفعل حيث حكم ابن بيبرس لمدة محدودة جدا وتم الانقلاب عليهما لفقدان الكفاءة.

واستولت مجموعة أخرى من مساعدي بيبرس علي سلطنة مصر ولكن بركة خان قد أرسل قاعدة بشرية كبيرة من الجنود التتار إلي بيبرس أثناء فترة سلطنته وفرح بهم بيبرس علي اعتبار أنهم سند له في مواجهة محور هولاكو خاصة في الشام حيث كان محور هولاكو يضم كبار العلماء والقضاة وبقايا الحكم الايوبي وعملائهم في الشام وكذلك بقايا السلاجقة في بلاد الأناضول الذين كانوا في معظمهم أقرب إلي التحالف مع هولاكو .

من هو هولاكو؟؟

قال الكتبي في فوات الوفيات (2/ 580) هولاكو بن تولي قازان بن جنكيزخان ملك التتار ومقدمهم.

كان طاغية من أعظم ملوك التتار ، وكان شجاعاً مقداماً حازماً مدبراً ذا همة عالية وسطوة ومهابة وخبرة بالحروب ومحبة للعلوم العقلية من غير أن يتعقل منها شيئاً. أجمع عنده جماعة من فضلاء العالم وجمع حكماء مملكته وأمرهم أن يرصدوا الكواكب ، وكان يطلق الكثير من الأموال والبلاد وهو علي قاعدة الترك في عدم التقيد بدين ، لكن زوجته تنصرت . وكان سعيداً في حروبه ، طوف البلاد وإستولي علي الممالك في أيسر مدة ، وفتح بلاد خراسان وفارس وأذربيجان وعراق العجم وعراق العرب والشام والجزيرة والروم وديار بكر ، وقتل الخليفة المستعصم وأمراء العراق وصاحب الشام وصاحب ميافارقين . (أبوالفداء/744).

المواجهة بين طلبة الخليفة ومنجنيق هولاكو

الخليفة يستورد طبالين من الموصل ، ويبيع لهولاكو منجنيق وأدوات لحصار بغداد

وقد شهد بذلك ابن الطقطقي المؤرخ المعاصر للأحداث في كتابه الآداب السلطانية (27):

وكان المستعصم آخر الخلفاء شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغاني ، لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة ، وكان ندماءؤه وحاشيته جميعهم منهمكين معه علي التنعم واللذات، لا يراعون له صلاحاً ! وفي بعض الأمثال: الحائن لا يسمح صياحاً ! (الحائن الذي حان هلاكه بحمقه). وكتبت له الرقاع من العوام وفيها أنواع التحذير وألقيت فيها الأشعار في أبواب دار الخلافة ، فمن ذلك :

قل للخليفة مهلاً أذاك ما لا تحب
ها قد دهتك فنون من المصائب غرب
فإنهض بعزم وإلا غشاك ويلٌ وحرب
كسر وهتك وأسّر ضرب ونهب وسلب

وفي ذلك يقول بعض شعراء الدولة المستعصمية من قصيدة أولها :

يا سائلي ولمحض الحق يرتاد أصخ فعندي نُشدٌ وإنشاء وإنشاء
واضيعة الناس والدين الحنيف وما تلقاه من حادثات الدهر بغداد
هتكٌ وقتل وأحداثٌ يشيب بها رأس الوليد وتعذيبٌ وأصفاد

كل ذلك وهو عاكف علي سماع الأغاني وإستماع المثلث والمثاني ، وملكه قد أصبح واهي المباني ! ومما أشتهر عنه أنه كتب إلي بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوي الطرب ، وفي تلك الحال وصل رسول السلطان هولاكو إليه يطلب منه منجنقات وآلات الحصار ! فقال بدر الدين: أنظروا إلي المطلوبين وأبكوا علي الإسلام وأهله!. (ص/52)

وبلغني أن الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي كان أواخر الدولة المستعصمية ينشد دائماً:

كيف يُرجي الصلاح في أمر قوم ضيعوا الحزم فيه أي ضياع
فمطاعُ المقال غير سديد وسديد المقال غير مطاع

الذهبي: تاريخ من التناضات والأكاذيب

قال الذهبي في تاريخه (259/48): قال الشيخ قطب الدين كان (المستعصم) متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجدّه!!!.

تعليق: أنظر ما يعنيه مشايخ الزور من كلامهم عن السنة الشريفة وجرأتهم في الكذب علي رسول الله. ولكن تلك هي سنة المستعصم كما شهد بذلك المؤرخ المعاصر للحدث ابن الطقطقي في الآداب السلطانية (27) فقال:

وكان المستعصم آخر الخلفاء شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغاني ، لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة ، وكان ندماءؤه وحاشيته جميعهم منهمكين معه علي التنعم واللذات ، لا يراعون له صلاحاً. ويواصل القول:

ولكنه لم يكن علي ما كان عليه أبوه المستنصر وجده الناصر من التيقظ والحزم وعلو الهمة فإن المستنصر بالله كان ذا همة عالية وشجاعة وافرة ونفس أبيه ، وعنده إقدام عظيم ، استخدم من الجيوش ما يزيد علي مائة ألف ، وكان له أخ يعرف بالخفاجي يزيد عليه في الشهامة والشجاعة وكان يقول : إن ملكني الله لأعبرن بالجيوش نهر جيحون وأنتزع البلاد من التتار وأستأصلهم! . فلما توفي المستنصر لم ير الدويدار والشرابي والكبار تقليد الخفاجي الأمر وخافوا منه وآثروا المستعصم لما يعلمون من لينه وإنقياده وضعف رأيه، ليكون الأمر اليهم، فأقاموا المستعصم.

وقال ابن العبري في تاريخ مختصر الدول(226): وفي سنة أربعين وستمائة ببيع المستعصم يوم مات أبوه المستنصر ، وكان صاحب لهو وقصف وشغف بلعب الطيور وإستولت عليه النساء ، وكان ضعيف الرأي قليل العزم كثير الغفلة عما يجب لتدبير الدول وكان إذا نبه علي ما ينبغي أن يفعله في أمر التتار إما المداراة والدخول في طاعتهم وتوخي مرضاتهم أو تجييش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم علي العراق، فكان يقول: أنا بغداد تكفيني! ولا يتكثرونا لي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد! ولا يهجمون علي وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي! فهذه الخيالات الفاسدة وأمثالها عدلت به عن الصواب ، فأصيب بمكاره لم تخطر بباله .

وقد وصف في النجوم الزاهرة (345/6) تخليفهم له فقال: وفيها (640 هـ) توفي الخليفة امير المؤمنين المستنصر بالله ... وخطب له يومئذ بالجامع حتي أقبل شرف الدين إقبال الشرابي ومعه جمع من الخدام ، وسلم علي ولده المستعصم بالله أمير المؤمنين، واستدعاه إلي سدة الخلافة ، ثم عرف الوزير وأستاذ الدار ، ثم طلبوا الناس وبايعوه بالخلافة ، وتم أمره .

دولة بلا جيش توفيراً للمال

أصروا على ذلك (مستشاروا الخليفة-الحكام الحقيقيون) رغم الإعتراضات وخطر مجئ المغول إلي العاصمة !. قال أبو الفداء في تاريخه (804): ولما مات المستنصر اتفقت آراء أرباب الدولة مثل الدوادار والشرابي علي تقليد الخلافة ولده عبد الله ولقبوه المستعصم بالله ، وهو سابع ثلاثينهم وآخرهم ، وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور، وكان عبد الله المستعصم ضعيف الرأي فاستبد كبراء دولته بالأمر ، وحسنوا له قطع الأجناد ، وجمع المال ومدارة التتر ، ففعل ذلك وقطع أكثر العساكر.

جيش الخلافة المتسول

صرف المستعصم معظم الجنود من الخدمة العسكرية لتوفير الأموال. وكان تعداد الجيش وصل الي مئة ألف في زمن أبيه فخفصه المستعصم إلى حوالي عشرة آلاف. وقد عثر هولاءكو عل كنوز ودفائن الخليفة وكانت هائلة فوبخه هولاءكو على بخله في الإنفاق عل الجيش والرجال لحماية ملكة.

فتعطل الجند وكانوا يطوفون في الأسواق يتسولون من الناس الطعام وكان الناس يبكون لحالهم وحال دولة الخلافة. بينما أنباء تقدم جيوش التتر تنتشر. والخليفة غارق في الترفيه مع الراقصات والموسيقي مع حاشية الفساد والمفسدين.

حتى داهم جيش التتار قصر الخلافة وقتل راقصته المفضلة. و راود هولوكو سيد القصر الأولي عن نفسها . فكانت أسوأ نهاية لأعرق دولة في تاريخ المسلمين.

الراقصة عَزْفة شهيدة بين يدي الخليفة

قال ابن كثير في النهاية (13/ 233): وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتي أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه ، وكانت من حملة حظاياه مولدة تسمى عَزْفة ، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة ، فإنزَعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً.

(وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب: إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم) فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز وكثرة الستائر (الجُدُر) علي دار الخلافة ! وكان قدوم هولوكو خان بجنوده كلها وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل إلي بغداد في ثاني عشر المحرم من هذه السنة ، وهو شديد الحنق علي الخليفة بسبب ما كان تقدم من الأمر الذي قدره الله وقضاه وأنفذه وأمضاه ، وهو أن هولوكو لما كان أول برونزه من همدان متوجهاً إلي العراق ، أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي علي الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا ليكون ذلك مداراة له.

"الخليفة المستعصم بالذهب" مات فوق جبل من ذهب

قال الباحث السيد حسن الأمين في كتابة الإسماعيليون والمغول(130): ويذكر السائح البندقي ماركو بولو الذي مر ببغداد بعد انقضاء الدولة الإلخانية بقليل قصة كانت ذائعة في عهده ، خلاصتها: أن هولوكو بعد أن قبض علي الخليفة اكتشف أن للخليفة برجاً مليئاً بالذهب! فاستدعاه بين يديه وأنبّه لجشعة وبخله اللذين منعاه من استخدام كنوزه في تكوين جيش يدافع عن عاصمته، التي كانت مهددة منذ مدة طويلة ، ثم أمر بحبسه في ذلك البرج بدون طعام حيث مات هناك بين كنوزه ! وكذلك فإن عبد الله بن فضل الله الشيرازي ذكر اختلاف الروايات في كيفية قتل الخليفة ، وإلي أن أحدها ذكر أن الخليفة منع عنه الطعام ، وعندما طلب شيئاً من الموكلين به الحراس وصل الخبر إلي هولوكو فأمر أن يقدم إليه طبق مليء بالذهب ، فقال الخليفة وكيف يمكنني أكل الذهب ؟! فصدر الأمر عن طريق المترجم أن يقال له: إذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل ، فلماذا لم تفرقه علي عسكري وأعوانك لتفدي به نفسك والعدد الكبير من معاونيك ، فتحفظ بذلك ملكك ؟! فلم يُحر الخليفة جواباً! . رواية ماركو بولو ورواية الشيرازي تفسران إلي أن هولوكو بعد أن دخل بغداد أحضر الخليفة وطلب إليه إحضار كنوزه فأحضر إليه بعض الأموال والجواهر ، فرفضها هولوكو وقال له : أذكر ما تملكه من الدفائن ما هي وأين توجد ؟ فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء من الذهب في ساحة القصر ، فحفروا الأرض حتي وجدوه ، وكان مليئاً بالذهب الأحمر ، وكله سبائك وزن الواحدة مائة مثقال!.. هذا غير البرج المذكور أعلاه .

(تعليق: نلاحظ أن هولوكو قتل الخليفة بنفس الطريقة التي أستخدمها فيما بعد السلطان محمد بن قلاوون لقتل نائب السلطنة "سالار" وهو تترى ظن المماليك أنه عميل لهولوكو في بغداد بالتوازي مع ابن تيمية في الشام لتسليم البلاد لهولوكو وطرده المماليك منها).

الوحش والجماليات: هولاكو عاشقا

رغم أن الوحش التترى قتل حوال مليوني إنسان في بغداد وحدها . إلا أنه أراد أن يكافئ نفسه بالزواج من أميرة جورجية حسناء خطفت لُبّه و كان أبوها ملكا علي بلاد الكرك (جورجيا) وكانت مسلمة وأبوها مسيحي ولكنها أصرت علي أن يعتنق هولاكو الإسلام فسأل من حوله كيف يكون مسلماً حتى يتمكن من الزواج منها.

هولاكو يراود زوجة الخليفة عن نفسها

ذروة النصر أن يضم الجنرال المنتصر زوجة عدوه إلى محظياته.

(عرف عسكري مغولي)

عند دخوله بغداد راود هولاكو زوجة الخليفة المستعصم عن نفسها. ولكن تلك السيدة انقذت شرف المستعصم حسب رواية الذهبي.

(تعليق: العرف العسكري المغول طَبَّقَهُ بالفطرة قادة مسلمين كبار مثل خالد بن الوليد الذي تزوج من ليلي زوجة مالك بن نويرة ليلة مصرعه. كما تزوج صلاح الدين الأيوبي أرملة نور الدين زنكي أخطر أعدائه وولى أمره السابق بعد أن مات).

كذب الشيخ الذهبي يثير الشكوك ولا يدفع التهم

الكذبة الأولى: الخليفة كان يقرأ القرآن عندما قتلت عرفة الراقصة. وهي كانت ابنته وليست راقصة. ولقد حكي أن الخليفة كان قاعداً يقرأ القرآن وقت الإحاطة بسور بغداد وإحدى (بناته) بين يديه فأصابها سهم فوقعت ميتة!. ويقال كتب الدم علي الأرض إذا أراد الله أمراً سلب ذوي العقول عقولهم ! وإن الخليفة قرأ ذلك وبكي ! وإن هذا هو الحاصل علي أن أطاع الوزير في الخروج اليهم .

الكذبة الثانية: عندما راود هولاكو "سيدة الخلافة الأولى" عن نفسها فأنقذت شرف الخلافة بقصة أطفال.

قال ذهبي الأكاذيب:

ولله ما فعلت زوجة أمير المؤمنين ! قيل: أن هولاكو دعاها ليوافقها فشرعت تقدم له تحف الجواهر وأصناف النفائس تشغله عما يرومه ، فلما عرفت تصميمه علي ما عزم عليه اتفقت مع جارية من جواربها علي مكيدة تخيلتها وحيلة عقدتها فقالت لها: إذا نزع ثيابك وأردت أن اقدك نصفين بهذا السيف فأظهري جزعاً عظيماً ، فأنا إذ ذاك أقول لك افعلي أنت هذا بي ، فإن هذا سيف من ذخائر أمير المؤمنين وهو لا يؤثر إذا ضرب به ولا يجرح شيئاً ، فإذا أنت ضربتيني فيكن الضرب بكل قواك علي نفس المقتل ! ثم جاءت إلي هولاكو وقالت : هذا سيف الخليفة وله خصوصية وهي أنه يضرب به الرجل فلا يجرحه إلا إذا كان الضارب الخليفة ! ثم دعت الجارية

وقالت أجرب بين يدي السلطان فيها فلما عاينت الجارية السيف مصلتاً والضرب آتيا صاحت صيحة عظيمة وأظهرت الجزء شديداً ، فقالت السيدة رضي الله عنها : ويلك أما علمت أنه سيف أمير المؤمنين ؟ مالك أتخشينه أما تعرفينه ؟! خذيه وأضربي به فأخذته فضربتها به فقدتها نصفين ! وماتت وما أَلمت بعار ، ولا جعلت فراش ابن عم رسول الله فراشاً للكفار ! فتحسر هولاكوه . وعلم أنها مكيدة . ثم يحاول الذهبي لملمة باب شائن لم يفتحه أحد قبله فيقول مرتبكا وقد رأى أن معجزة السيف لن يصدقها البلهاء فما بالك بالخبثاء من أمثال هولاكوه الذي دُوِّخ العالم . فيقول ذهبي الأكاذيب: وقد رأيت مثل الحكاية جري في الزمن الماضي لبعض الصالحات راودها عن نفسها بعض الفاجرين)!!.

وبصفته مؤرخاً أميناً أشار لنا إلى مصدر الأكذوبة. فأثار الشكوك ولم ينف التهمة.

يقول المصريون: أراد أن يكحلها فعمّاها.

الكذب الذهبي

الشيخ الذهبي عالم دين تورط في كتابة التاريخ واتخذة وسيلة للتقرب من السلاطين الظلمة في أي عهد تصدي لهم بالتاريخ.

وكان شغوفاً بتبرئة ساحاتهم وأدخالهم الجنة، بأي شهادة زور وأحداث ملفقة يخترعها لهم. وكثيراً ما كشف كذبه صدفة بواسطة زملائه في الترويج لسلاطين الجور من أمثال ابن كثير الذي كشف الكذبتين التاليتين للشيخ الجليل والمؤرخ الكاذب.

أول كذبات الذهبي عن المستعصم هي قوله أنه كان يقرأ القرآن عندما قتلت الراقصة عرفه بين يديه بسهم من التتار بينما ابن كثير قال أنه كان يستمتع بالترفيه ورقصات عرفة التي كانت تضحكه !!.

وقال الذهبي في سلسلة أكاذيبه أن التي قتلت بين يدي الخليفة كانت أحد بناته بينما قال ابن كثير أنها كانت (مُولدة). فإذا أردنا الجمع بين الكذبتين سنقول أنها كانت ابنة للخليفة من أحد الجواري وهذا معني كلمة "مولدة"- والله أعلم - أي أنها ابنة غير رسمية للخليفة وهذا طبيعي في قصر الخلافة العباسية خاصة لدي المستعصم والعديد ممن سبقه من خلفاء. وإتفق الشيخان ابن الأثير والذهبي علي القول أن الدم الذي نzf من الشهيدة كتب علي الأرض كلمات: (إذا أراد الله أمراً سلب ذوي العقول عقولهم).

هذه كرامة للراقصة التي تسلى خليفة المسلمين وتضحكه. وأن الخليفة قرأ ذلك وبكي وإن هذا هو الحاصل علي أن أطاع الوزير في الخروج إليهم (يقصد ابن العلقمي) ويريد المؤرخون من هذا أن ابن العلقمي هو سبب موت الخليفة لأنه لولا لم يخرج إليهم الخلفة لنجى، وكأن التتر غير قادرين علي الوصول إليه خوفاً من الجواري والمغنيات من حوله.

الكذبة الثانية لشيخ الأكاذيب الذهبي قوله أنه عندما راود هولاكوه السيدة الأولى للقصر الخلافي أنقذت شرف الخلافة بواسطة قصة لا يصدقها حتي الأطفال ناهيك عن طاغية جبار مثل هولاكوه الذي يحكم نصف العالم وقتل ملايين البشر .

أكدوبة الذهبي عن زوجة الخليفة أعترف في نهايتها أنها تشبه قصة قديمة وقعت مع سيدة من الصالحات مع أحد المجرمين.

وكل ما فعله الذهبي هو أن أخذ تلك القصة وإعادة تفصيلها علي مقاس السيدة الأولى في قصر الخلافة . وتفاصيل القصة كما تخيلها الذهبي موجودة في الفقرة السابقة .

الفتنة تدمر المسلمين:

التعصب ودورة في إضعاف المسلمين .

ما فعله يزيد في الإسلام كان تغييراً جذرياً في وجهته الإنسانية التي تسترشد بتوجيهات الله وتوضيحات الرسول في سنته فانقلب كل شيء رأساً علي عقب وعلي عكس ما أراد الله ورسوله .

فالمجتمع الذي كان من المفروض أن يكون (كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الأعضاء بالحمى والسهر) .

وقال أيضا (المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص) يشد بعضه بعضا حول كل ذلك إلي تنافر وكراهية وقتال نتيجة سياسة الاستئثار بالسلطة علي أسس قبلية. و نشرالعداء بين الناس بتعصب مذهبي بين السنة والشيعة في الأساس فتطور الأمر إلي كراهية وصراع بين المذاهب السنية نفسها حول خلافات في مسائل فقهية فرعية .

تطورت إلي حروب وقتل وسفك دماء لأن ثقافة المجتمع قامت علي التعصب والكراهية بدون بصيرة أو فهم. فأنقسم المسلمون إلي سنة وشيعة في صراع مرير لا ينطفئ و نار كلما خمدت نفخ فيها أعداء الله لتستعر من جديد لتحرق أمة الإسلام .

وجعل يزيد ذلك دينا بقوله أن مهمته الأساسية هي الإنتقام من آل بيت رسول الله (آل أحمد) فصار ذلك شعارا للدولة الإسلامية التي أنشأها علي نهج الممالك المسيحية في أوروبا وتوارثت الممالك الإسلامية عقيدة التفرقة بين الشيعة والسنة وأشعال الحرب داخل المجتمع المسلم تحت شعار إختلاف المذاهب ولكن الكراهية التي أصبحت فطرة والجهل الذي أصبح مستحكما علي مر العصور نقل الفتنة إلي المذاهب السنية نفسها كما ذكرنا .

ومن أخطر تلك الفتن ما حدث في عهد التتار في مدينة أصفهان من فتنة بين الأحناف والشوافع من قتال فذهب الأحناف يستنجدون بالتتار ليقاتلوا إلي جانبهم ضد الشوافع ففعل ذلك التتار بعد أن قتلوا الشوافع فتحولوا إلي قتل الأحناف ولم يتركوا مسلماً في أصفهان .

وبدل أن يستفيد المسلمون من تلك الدروس الكبيرة تجاهلوا كل ذلك واستأنفوا عصبية تناقض الدين وتهدم الأمة ولكن مدرسة سنية بعينها جعلت حياتها عبر التاريخ متعلقة بدوام الفتنة بين المسلمين وتخريب أوأصر الإخوة بين السنة أنفسهم علي أسس عرقية وقبلية فأن فقدوا هذا العنصر أيضا توجهت الكراهية علي أساس شخصي للسيطرة علي الحكم والثروة كما حدث بين الأيوبيين الذين قضوا معظم حياتهم في الشام ومصر في حروب علي الحكم.

وعندما ظهر التتار أسرع فريق من الملوك الأيوبيين للتحالف معهم ضد إخوانهم الأيوبيين في الشام أو ضد المسلمين السنة المماليك في مصر الذين استولوا علي الحكم وطردوا الأيوبيين .

وفي الفقرة التالية مثالين على الفتنة بين المسلمين علي أساس المذهب والفتنة داخل المذهب الواحد بين المسلمين للصراع علي الحكم.

ايوبيون في خدمة التتار

أنضم إلى هولاء عدد من ملوك المسلمين وساروا معه لمعاونته في فتح الشام ومصر! ومنهم الملك السعيد ابن الملك العزيز بن الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي. الذي سلّم لهولاء الصببية (قلعة علي جبل شاهق تطل علي باناس) وأنضم إليه في زحفه .

ويقول أبو الفداء في تاريخه (204/3): وسار الملك السعيد معهم وأعلن الفسق والفجور وسفك دماء المسلمين .. وكان معهم أيضاً في هذه المعركة الملك الأشرف موسي صاحب حمص الذي استطاع الفرار عند حصول الهزيمة فلم يؤسر ، وهو من أحفاد شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي (وممن حرضوا المغول علي غزو الشام ومصر الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل بن الكامل بن العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي) ... قبض عليه الظاهر بيبرس وأحضر الفقهاء والقضاء وأوقفهم علي مكاتبات من التتر إلي المغيث أجوبة عما كتب إليهم في إطماعهم في ملك مصر والشام، كما نص علي ذلك أبو الفداء .

وباء التعصب ينتقل إلى الوسط السنّي

فتنة أصفهان بين الأحناف والمالكية

الطائفتان الحنفية والشافعية كانت بينهما حروب متصلة وعصبية ظاهرة ! فخرج قوم من أصحاب الشافعي إلي من يجاورهم ويتأخمهم من ممالك التتار فقالوا لهم : أقصدوا البلد حتي نسلمه إليكم ! فنقل ذلك إلي قآن بن جنكيز خان بعد وفاة أبيه. والملك يومئذ منوط بتدبيره فأرسل جيوشاً من المدينة المستجدة التي بنوها وسموها "قرا حرم" ، فعبرت جيحون مغربة وانضم إليها قوم ممن ارسله جرماغون علي هيئة المدد لهم ، فنزلوا أصفهان في سنة 633 المذكورة وحصروها ، فإختلف سيفا الشافعية علي عهد بينهم وبين التتار أن يقتلوا الحنفية ويعفوا عن الشافعية ! .

فلما دخلوا البلد بدؤوا بالشافعية فقتلوهم قتلاً ذريعاً ولم يفوا مع العهد الذي عهدوه لهم ، ثم قتلوا الحنفية ثم قتلوا سائر الناس .

المماليك أطول فترة للحكم الإسلامي في مصر

استمرت دولة المماليك في حكم مصر والشام مدة 3 قرون تقريباً . وكانت المدة الأكثر غني بالدروس والعبر فيما يتعلق بتطبيق الإسلام في الحكم وإدارة الدولة والمجتمع. وظهرت الأخطاء بشكل أكثر وضوحاً عما سبق في عمر الدول السابقة .

يمكن القول أن المماليك حكموا مصر داخلياً أي في أمور الإدارة الداخلية في أيام الاحتلال التركي لمصر الذي استمر لستة قرون .

أي أن المماليك هم أكثر فئة حكمت مصر في تاريخها الإسلامي لهذا تعتبر دراسة العصر المملوكي خطوة هامة لاستخلاص الدروس والنتائج وفهم مصر نفسها.

ورغم أن الفترة المملوكية كانت طويلة وغنية بالأحداث الداخلية والخارجية ، فإن المصريين لم يبذلوا جهداً كافياً لدراساتها رغم أن أحداثها كانت مدوية وفاجعة وساطعة الدلالة خاصة في مسائل الإستيلاء علي السلطة. والعناصر التي وضعها يزيد مؤسس الهرقلية الإسلامية فإن معظم تلك المبادئ تجذرت وتداخلت مع الدين وأصبح من الصعب الفصل بينهما. أي أن دستور يزيد للحكم أصبح جزءاً من دين الدولة وسياساتها المتوارثة عبر العصور .

وتلك أخطر نقطة في الموضوع الذي نتناوله. أي كيف يتحول الانحراف السياسي إلي انحراف ديني ، فيؤدي انحراف في مفاهيم الدين و تأكيد الانحراف السياسي والظلم الاجتماعي وإهدار حقوق المسلمين وأهل الذمة وتجاهل أحكام الإسلام التي رغم وضوحها لم يعد يلتفت إليها أحد .

خاصة في مجال العلاقة بين الحاكم والمحكوم وحقوق الرعية علي حاكمها بما فيها حق المحاسبة والتعيين والعزل.

كما أن انحراف علماء الإسلام أصبح هو القاعدة الثابتة والمستمرة فأصبح العالم موظفاً لدي السلطان ويسخر علمة الديني لخدمة مآرب السلطان في الحكم ونسي تماماً مسؤوليته أمام الله الا في بعض الأمثلة لعلماء معدودين في تاريخ الإسلام .

وفي البداية خاضت الدولة الإسلامية الحروب الخارجية تحت أسم الفتوحات الإسلامية ، بينما تلك الحكومات لم تطبق شيئاً من الإسلام علي نفسها أو علي رعاياها بل كانت تسعى لتوسعه النفوذ والسيطرة علي الثروات واستعباد الشعوب واتخاذ البشر سلعة تباع وتشترى كعبيد وسبايا فازدهرت تجارة العبيد إلي أن أصبحوا هم حكام البلاد كما في العصر المملوكي.

تولي السلطة في العصر المملوكي

كان العنف المفرط والقتل والاغتيال والمؤامرة هي وسائل الشرعية الجديدة في تولي السلطة واستبدال حاكم بآخر أو سيطرة مجموعة مملوكية علي مجموعة أخرى في تنافس بين الأمراء والجنسيات بين المماليك الذين كان معظمهم من أتراك آسيا وقبائلهم المتنوعة . خاصة الشركس والآص. وبدأ عصر الحكم المملوكي لمصر بإغتيال

آخر سلطان أيوبي وهو "توران شاه". وقد أوردنا قصة الاغتيال، وأشتهر بأنه قتل بثلاث أنواع من القتل مرة واحدة: بالسيف وبالغرق وبالحريق. وفتح ذلك باباً لم يكد يُغلق من الاغتيالات للحصول علي كرسي السلطنة المصرية .

ثم أغتيل الملك المعز، أول سلطان مملوكي في مصر علي يد زوجته شجر الدر التي قتلتها جواري ضربتها "أم علي" بالقباقيب في أشهر عملية اغتيال من نوعها لأعظم ملكة في العصر الإسلامي وآخر ملكات مصر.

ثم قتل السلطان قطز بطل معركة عين جالوت علي يد صديقة بيبرس الذي أصبح سلطاناً بعده وكان شريكاً له في انتصار "عين جالوت" ضد التاتار. ومن قبلها معارك المنصورة ودمياط ضد الفرنجة.

سيأتي معنا حادث الاغتيال الأكبر الذي هز مصر كلها وطالت آثاره كل بيت في القاهرة ومصر حتي وصفها المقريري بأنها أسوأ أيام مرت بمصر. وهو اغتيال السلطان الأشرف خليل قلاوون.

أرازل مصر عاطفيون يبكون على الظالم والمظلوم

فالشعب في العاصمة كان يبكي ويلطم ويشاهد الجثث والأجساد المصلّبة والأيدي المقطعة والمعلقة فوق الجمال. ويبكي مع الباكين سواء علي الظالم أو علي المظلوم حتي تهالك الناس من البكاء حسب قول المقريري وظهر كم كان هذا الشعب متعاطفاً مع القتل المصلوب دون أن يسأل أكان ظالماً أو مظلوماً.

ومع قسوة حكام المماليك وجرائمهم في سبيل الحصول على الحكم وتوريثه لذريته، قد نري مثلاً علي الحرص علي مصالح الناس (الشعب) حين يمتنع سلطان قوي عن تعيين ابنه ولياً للعهد لأنه يراه فاسداً وغير صالح. ويوصي أن يترك أمر اختيار حاكم مصر للخليفة العباسي.

وبالفعل أثبت التاريخ أن هذا الابن الذي اغتصب السلطة بعد أبيه كان ظالماً وجباراً وأن قرار أبيه كان صائباً في عدم توليته الحكم.

وكان السلطان هو سيف الدين قلاوون وأبنة الأشرف خليل الذي قيل أنه وضع السم لأخية الأكبر حتي لا يحكم. ويشتبه في أنه سمم أبيه حتي يخلو له كرسي السلطنة .

في العصر الأيوبي كان هناك مثال مشابه مع الفارق، السلطان كان الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي وبشكل غير متوقع ابدي شعوراً بالمسؤولية. ورغم نصائح بعض المقربين اليه بتولية ابنه تورانشاه ولياً للعهد رفض السلطان وقال: "إذا حضر إلي هنا سأقتله". رغم أنه هو نفسه لم يكن سلطاناً صالحاً. وكان ذلك أحد عجائب سلاطين مصر.

حيث تجتمع التناقضات في شخص واحد بشكل يصعب تصوّره، لأنه بعضه كان من تأليف المؤرخين الذين يكتبون التاريخ مقابل أجور من الحكام .

حتي أن بعض الفقهاء والعلماء كانوا يؤلفون الكتب العلمية ويهدونها إلي الحكام لتنشر بأسماء السلاطين كدليل علي سعة إطلاعهم وعلمهم .

أما ظلم السلاطين لشعب مصر فتلك سياسة دولة وعقيدة دينية منذ الفتح الأول والي الآن، وكأن شعار الدولة ودينها هو ان هذا الشعب يجب أن يظلم ويستعبد.

ونادراً ما تغيرت هذه السياسة الا في العهد الفاطمي وأقترنت بالحكم بالشيوعي لمصر. فقالوا عن الشعب أنه متشيع وفي الحقيقة أنه كان ذو فطرة تري أن العدالة لا تنفصل عن الدين وأن الدين بدون عدالة يصبح مجرد شعار فارغ بدون محتوى ولا يهم هذا الشعار سواء سني أو شيعي وكانت مصر سنية في معظم تاريخها وكان الحكم فيها ظالما فيما عدا مائتي عام حكمها الفاطميون فأحبهم المصريون بجميع طوائفهم الدينية .

ومنذ عهد صلاح الدين وحتى عهد أسرة قلاوون المملوكية وهي فترة طويلة قام فيها المصريون بثورات لاستعادة الحكم الفاطمي كلفتهم الكثير من الدماء والأموال. مع أن أهل السنة لم يبذلوا أي مجهود ستعادة بغداد من التتار وإعادة الخلافة العباسية إليها . وفي وقت سلطنته أرسل السلطان بيبرس قوة عسكرية مع الخليفة العباسي المقيم في مصر كي يستعيد بغداد من التتار. وساعة لقاء التاتار هربت القوة السنية وتركت خليفة المسلمين يواجه التتار وحيدا، واختلفت الأقوال في مصيره.

وعند سقوط الخلافة في بغداد. اكتفى أهل السنة بالقول أن شخصا شيعيا هو العلقي تأمر مع التتار لاحتلال بغداد وإسقاط الخلافة .

وفي هذا تبسيط شديد وإخفاء للحقائق وتضليل المسلمين عن القضايا الحقيقية المتمثلة في فساد نظام حكم الخلفاء واختفاء القوانين الشرعية من حياة الأمة والاكتفاء من الدين ببعض الشكليات التي لا تغير شيئا من الواقع المنحرف.

القوة وهيبة الدولة في إقليمها وخارجها، كانت ميزة لحكم المماليك الذي بدأ على يد أيبك وصولاً إلى سيف الدين قلاوون الذي أنشأ أسرته التي حكمت لمائة عام حققت فيها إنجازات ضخمة بتحرير الشام من الاحتلال الصليبي فحدث صراع مرير بين عائلة قلاوون وبين بقايا انصار السلاطين المماليك السابقين. وتم خلع السلطان محمد بن قلاوون أكثر من مرة وإعادة حتى أستقر الأمر لتلك العائلة ونفذت برنامج تحرير بلاد الشام وحماية مصر من الغزو وكانت دولتهم من أقوى الدول في المنطقة.

وكانت أيضا لا تخلوا من التناقضات العجيبة كما سوف نري في قصة السلطان سيف الدين قلاوون عندما بني مستشفى (بیمارستان) لعلاج المرضى مجانا في نظام صحي مدهش يعتبر متقدما جدا حتي بمعايير عصرنا الراهن من حيث العناية بالإنسان وصحته والأنفاق عليه من أموال الدولة بكل كرم وكان ذلك سابقة تاريخية لا تكاد تضاهيها سابقة أخرى في التاريخ الإسلامي (سوى مافعله الوليد بن عبد لملك في مستشفى متطور بناه في سابقة فعلية إن كان الحدث صحيحا وليس من تالف مؤرخي الخلافة).

نبدأ مع البداية العاصفة للعصر المملوكي حيث كان إغتيال السلطان الأيوبي تورانشاه طلقة البداية لتأسيس الدولة المملوكية. التي كثيرا ماتم نقل السلطة فيها إما بالسيف أو بالسم، أو حتى القباقيب عندما تتصارع ملكتان على قلب سلطان واحد عندها تكون انشياه معرضتان لخطر السحق كما حدث للسلطان أيبك أول سلاطين الممالك الذي قتله الطواشي (محسن الجوجري). محترف قتل السلاطين بخنقه وسحق أنثية.

اول جرائم سياسية في العصر المملوكي

1- إغتيال السلطان تورانشاه آخر سلطان أيوبي لمصر.

2- إغتيال السلطان عز الدين أيبك التركماني أول سلطان مملوكي لمصر .

3- اغتيال الملكة شجر الدر أول سلطنة مملوكية لمصر .

عقلية التآمر متأصلة في الفكر المملوكي لهذا كثيرا ما تأمر بعضهم علي بعض من أجل الوصول إلي السلطة بأي وسيلة حتي تأمر الأبن علي والده فقتله أو قتل شقيقة حتي لا يسبقه إلي الحكم أو قتلت الزوجة زوجها.

اغتيال السلطان أيبك

شعر أيبك أن الملكة شجر الدر تستأثر بالسلطة وربما فكرت في قتله فأراد تقوية مركزه في الحكم بأن يتزوج أبنه ملك الموصل لتثبيت نفسه وتهميش شجر الدر بوجود زوجة أخرى في القلعة، تكون أبنه ملك وليست مجرد جارية سابقة مثل شجر الدر .

شعرت شجر الدر أن السلطان أيبك يسعى الي قتلها وليس إلي تهميشها فقط نظرا لقوتها داخل أجهزة الدولة وولاء أكثر الأمراء لها فزوجها السابق السلطان الأيوبي نجم الدين هو مؤسس المماليك البحرية الذين هم القوة الأساسية في مصر.

استخدمت شجر الدر قاتل محترف من المماليك اسمه "محسن الجوجري" كان قد استخدمه زوجها السابق الصالح أيوب في قتل أخيه الملك العادل خنقاً في سجنه .

نفذ الجوجري ومجموعته عملية إغتيال السلطان أيبك وفي النتيجة سُنيق الجوجري علي باب قلعة الجبل. وقتل بالسيف أربعون طواشيا آخر ثم صُلبوا.

لتعود دائرة القتل لتصيب الملكة شجر الدر هذه المرة علي يد ضررتها الزوجة الأولى للسلطان أيبك الذي تولي أبنه الطفل "علي" سلطنة مصر من بعده.

السيدة "أم علي" زوجة السلطان القليل وأبنها السلطان "علي" لم يسجل التاريخ لها الا قتل الملكة شجر الدر بالقباقيب لأول مرة في اغتيال ملكة عظيمة مثل شجر الدر التي قتلت علي يد الجواري السمينات اللاتي أثبتن جدارتهن في اغتيال الخليفة العباسي "الهادي" الشهير بلقب جبار بني العباس ولكن جبروته لم يكن كافيا لدفع خطر الإختناق تحت أطنان الشحم النسوي الذي سقط فوق صدره فكنتم أنفاسه حتى مات . (الخيزران أم الخليفة هي التي دبرت اغتيال ابنها مستعينة بجواريتها البشعات).

بدأ ضرب الملكة شجر الدر يوم الجمعة ورموا جثتها من فوق سور القلعة إلي الخندق فجر يوم السبت ويبدو أنها قضت يوما حافلا حتي قضت نحبها تحت ظلال قباقيب جواري الست "أم علي".

وفي فجر السبت رموها من فوق سور القلعة إلى الخندق وهي عارية أو انها كانت بالقليل جدا من الملابس التي سلبها فقراء الأحياء المحيطة بالقلعة الذين يحومون حولها ليلا ونهارا في انتظار غنيمة تكون قد أسقطت من فوق الأسوار. فالقلعة تقذف في الخندق وفي جهة أحياء الفقراء بعض نتاج الصراع السياسي الدائر داخلها بعيدا عن أعين الشعب. ومن تلك الغنائم يستنتجون أحداث الصراع في الطبقة التي تحكمهم .

مرت علينا في الكتاب السابق قصة المرأة التي كانت تكتشف عملية الخنق غير المكتملة فتسارع إلى فريق الإغتيال وتنبههم أن القتل عاد إلى للحياة فيعودون لخنقة حتي الموت.

هذا الحادث تكرر حسب قول المؤرخ وكان الأمر عجباً ويحتاج إلى مناقشة مطولة فهناك الكثير من الأسئلة مثل: من هذه المرأة ؟ ومن أين جاءت ؟ ولماذا كانت تحت القلعة في ظلمات الليل ؟. كانت فرقة الإغتيال تحمل مشعلاً فأطفأوه حتي لا يري أحد عملية الخنق فماذا تفعل امرأة من الأرازل تحت سور القلعة في هذا الليل المظلم ؟ هل تبحث عن بقايا طعام لأسرتها أم صيد ثمين من سقط الصراع السياسي مثل جثة أمير تحتاج ثيابه الي تفتيش وربما تعريته وأخذ الثياب لبيعها مقابل ثروة تغير مسار أسرة أرازل كاملة لجيل أو أجيال.

ماحدث للملكة العظيمة شجر الدر كان شيئاً مشابها ولكن للأسف كانت قد ماتت بالفعل وكانت ضررتها في القلعة قد سلبتها ملابسها الا القليل وقال المقرزي أن الأرازل سلبوا الملكة تكة سراويلها وتركوها عارية عدة أيام حتي انتفخت فحملتها سلطات القلعة في قُفَّة لتدفن في قبر بالقرافة مع موتى المجاعات والأغراب عن المدينة .

الملكة العظيمة شجر الدر عندما أحضروها إلي بيت الوزارة أسفل القلعة وعلمت أنها سوف تقتل جمعت ما لديها من الحلي والجواهر والعقود ووضعتها في هاون نحاسي وجلست تطحن فيه حتي لا يستفيد منها أحد.

فلم يخطر في بالها أن تعطيها للفقراء والمساكين، الذين عاقبوها بعد موتها بسرقة تكة سراويلها التي لا تكاد تساوي دراهم معدودة .فكانت الصدقة الوحيدة التي وصلتهم من ملكة مصر.

هؤلاء السلاطين لم يتعودوا علي العطاء بل تعودوا علي النهب وإكتناز النفائس والذهب لهذا كان الشعب المحيط بالقلعة يحوم ليلاً حتي الفجر في انتظار جثة أحدهم حتي يسلبوه ملابسهم وأمواله وقد يقتلوه أو يسلموه إلي القلعة لإعادة قتله وإذا صادف مرور مجموعة من البدو فيعقدون معه صفقة لتعريبه إلي الشام في مقابل ثروة من المال كما حدث مع المملوك الشارد الذي توجد صورته علي غلاف احد هذه الكتيبات. وهو "أحمد بيك أمين" أشهر هارب في التاريخ المملوكي رغم وجود قصص أهم لهاريين وصلوا إلي كرسي السلطنة مثل لاشين وبيبرس وقلاوون وجميعهم كانوا هاريين ومطاردين ومهدين بالقتل وكلهم وصلوا إلي كرسي السلطنة .

سلاطين ضد التوريث

الصالح ايوب كان يرفض توريث العرش لابنه تورانشاه.

جاء عن السلطان الصالح أيوب في كتاب السلوك للمقرزي:

مات في حبوسه ما ينيف عن خسة آلاف نفس سوي من قَتْل وغَرْق من الأشرفية (المماليك البحرية) في البحر(النيل) ولم يكن له مع ذلك ميل إلي العلم ولا مطالعة الكتب.

قتل السلطان الملك الصالح أيوب أخاه الملك العادل ، ومن حين قتله ما أنتفع بالحياة ولا تهنى بها: فنزل به المرض وطرقه الفرنجي(مرض الزهري).

وقيل له مرة أن يرسل الي ابنه تورانشاه ، ليحضر من حصن كيفا إلي مصر لولاية العهد ، فأبي ، وألح عليه الأمير حسام الدين أبو علي في طلب حضوره فقال: (متي حضر إلي هنا قتلته). وكان المباشر لقتلة أربعة من ممالك أبيه.

محسن الجوجري مختص في قتل السلاطين

الملك الصالح نجم الدين لما أراد أن يقتل أخاه العادل ، قال للطواشي محسن هو محسن الجوجري رئيس الفريق الذى قتل السلطان أيبك التركماني: إذهب إلى أخي العادل في الحبس ، وخذ معك من الممالك من يخنقه. فعرض محسن ذلك علي جماعة من الممالك وكلهم يمتنع الا أربعة منهم ، فمضي بهم حتي خنقوا العادل. وقدّر الله أن هؤلاء الأربعة هم الذين باسروا قتل أبنة المعظم " تورانشاه " أقبح قتلة . (ص 458- ج 1) السلوك

قلاوون يرفض توريث الحكم لابنه الفاسد خليل

قرر السلطان سيف الدين قلاوون فتح عكا والقضاء على من فيه وأعد جيشا ليقوده بنفسه وفي الطريق شعر بوعكة شديدة ، ثم ثقل عليه المرض ومات فتوقفت هذه الحملة الى حين ، وقبل وفاته طلب منه الأمراء أن يأخذ البيعة لابنه خليل ، الا أنه قال لا أفعل هذا بالمسلمين، ورفض أن يأخذ لخليل البيعة ، فقد كان خليل مستهترا وبه عنف وغلظة ، وكان صديقا لشاب سورى اسمه (ابن السلعوس) كان له خط جيد فجعله خليل ناظرا لديوانه، وحظى ابن السلعوس بمكانه سامية عند الاشرف خليل حتى صار نديمه، ولايصبر عنه ساعة واحدة واحتوي على عقله وملك لبه ، فلما بلغ المنصور قلاوون ذلك أمر بنفى ابن السلعوس الى مكة.

وفي الأخير قتل خليل أبيه بالسهم كما قتل أخيه الأكبر(الصالح قلاوون) من قبل..

شرعية انتقال السلطة عند الممالك

تلك البشاعة التي أرتكبها الممالك في عملية الوصول إلي الحكم والإستيلاء عليه بأي وسيلة هي أعمال شرعية تماما حسب إجتهد بعض علماء الإسلام خاصة الحنابلة مثل ابن تيمية وابن عبد الوهاب و الذي أباح لآل سعود تولي السلطة بالسيف وتوريثها للأبناء بدون تراضي مع الناس .

وقتل من يخالفهم باعتباره خارجياً أو رافضياً أو مفسد في الأرض. فكانت الوهابية والسلفية أفضل غطاء لإرهاب الدولة في العهد السعودي كما في العهد المملوكي.

فلا يوجد عالم واحد أشار إلي تجريم ما فعله الممالك (لأن هذ كله فعله يزيد وصمت عنه العلماء فصار سنة مؤكدة عن يزيد استبدلوا بسنة رسول الله ومع ذلك لا يخجلون من تسمية أنفسهم " اهل السنة " .

في استيلاء الممالك على السلطة واستخدام القوة المفرطة ضد المعارضين والاستئثار بالمال العام وإرتكاب جرائم بحق الناس بدون أن يعترض عليهم أحد بصفة أنهم أولياء الأمر واختصروا القرآن كله للناس في آية واحدة هي (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ). وأولي الأمر هم هؤلاء الذين استولوا علي الحكم بالسيف والسم والقباقيب أو خنقاً بالوسائد على أيدي جواري مخيفات منتفحات بالدهون .

انتهى الكتيب الثامن

نشر في تاريخ 2024/11/16

موقع مافا السياسي

WWW.MAFA.WORLD